جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة

prix littéraires
premios literarios
naji naaman *'s*
literary prizes
2006

هيثم بهنام بردى

تِـليبـاثي

(مجموعةٌ قصَصيَّة)

دار نعمان للثقافة

هيثم بهنام بردى

هو هيثم بهنان جرجيس، قاصٌّ عراقيّ، من مواليد عام ١٩٥٣. له كتبٌ عديدةٌ وأعمالٌ مَنشورةٌ ومَخطوطة، منها ما نُقِلَ إلى الإنكليزيَّة والفرنسيَّة والهُلَّنديَّة والسُّريانيَّة. حائزٌ جائزةَ ناجي نعمان الأدبيَّة (جائزة التَّكريم)، ٢٠٠٦.

هيثم بهنام بردى، الصَّامِدُ في العراق، يأسرُنا، في مجموعته القصَصيَّة الحاضرة، في عوالِمَ من الرَّمزيَّة السَّهلَة، جامِعُها المُشتَرَكُ خيالٌ هو الأقربُ إلى الواقِع، وتخاطرٌ هو المُحَبَّبُ بين البَشَر، وتخاطبٌ هو الأصدَقُ مع الطَّير. وهو، في ذلك، وإليه، عميقٌ في الأنسَنَة، رائدٌ في الوَصف.

ناجي نعمان

Haytham Bahnam Burda

Iraqi short-story writer, born in 1953. Various books, manuscripts and cultural activities. Translated into English, French, Dutch and Syriac. Laureate of Naji Naaman's Literary Prize 2006 (Honour Prize).

Nouvelliste irakien, né en 1953. A son actif s'inscrivent divers livres, manuscrits et activités culturelles. Traduit en anglais, français, hollandais et syriaque, il est lauréat du Prix Littéraire Naji Naaman 2006 (Prix d'Honneur).

تِـليبـاثي

بعد الغسق الذي يغطِّي الحديقةَ برمَّتها ويُضفي على أوراق أشجارها تلك الصَّبغة البرتقاليَّة الشَّبيهة بالموت، يوصِدُ الأبوابَ كلَّهـا، يقفـلُ درفات النَّوافذ، يُسدلُ ستائرَها الزَّرقاءَ الدَّاكِنَة، ثمَّ يعمدُ إلـى إطفـاء الأنوار كلِّها فيغرقُ البيتَ بالعتمة المُهَيمِنَة على اسـتحياء... وحـدَها النَّافذةُ المُطلَّةُ على الحديقة الخلفيَّة للبيت التي تعتمرُ عرائشَ العنـب بعناقيدها النَّاضجة المُدلاَّة تبقى مضاءَةً تفرشُ ضوءَها السَّـاطعَ مـن خلل حوافِ السِّتارة، وتنتهى الأضواءُ فوق جسـد الكلـب العمـلاق المَربوط بسلسلة حديديَّة بعمود خشبيٍّ والمُكَوَّمِ على الأرض واضـعًا رأسَه المثلَّث بين قائمَيه الأماميَّين بتَراخٍ وتلذُّذٍ لا مثيلَ له.

يقفُ عند مدخل غرفة الرَّسم، يتأمَّـلُ المصـباحَ المُتَـدلِّي بسلسـلة استوطنَ حلقاتِها الصَّدأ، مصباحًا بهيئة غريبة مميَّزة، مزركشًا بنقاطٍ سودٍ هي بقايا حشرات طائرة متفحِّمة على الزّجاج، ضوؤه المرجرجُ يسقطُ على الحيطان الأربعة المحزَّزة بلوحات متقاطرة من الزَّيت أو تخطيطات بالحبر الصِّيني تُعلنُ عن وجهٍ أنثـويٍّ واحـدٍ بتفاصـيلَ متطابقةٍ متماثلةٍ تمامًا في أوضاعٍ مختلفة، جلسَ على كرسـيٍّ قـديمٍ دوار جاثم في منتصف الغرفة أسفلَ المصباح بالضَّبط! يسقطُ الضَّوءُ

على وجهه، وجهٍ وسيمٍ تفاصيلُه أقربُ إلى وجه الأنثى منه إلى الذَّكَر، عينان ناهِلتان حالِمتان، أنفٌ أقنى يوحي بالخيلاء، فَمٌ دقيق، أسفلَ جهته اليمنى آثارُ ندبة قديمة، جبينٌ عريضٌ يُماثلُ صورَ أولئك المحاربين الرُّومان أو اليونان أو الآشوريِّين، وجهٌ هو مزيجٌ من الجمال الباهر والصَّرامة المستديمة، والمتأمِّلُ وجهَ الرَّجل، والوجوهَ الأنثويَّة المَرسومة على اللَّوحات لا يُخطئه التَّشابه الكبير بينهما حدَّ التَّطابق.

نهض من كرسيِّه، وقفَ كالتِّمثال، تحت المصباح تمامًا، صارَ ظلُّه أمامَه، تأمَّلَه بإمعان، وجدَه ملمومًا مضغوطًا، تخيَّلَ نفسَه بجسده المَفتول الفارِع وقدِ استجابَ إلى تكوينٍ لا أبعادَ محدَّدةً له، أرادَ أن يلعبَ قليلاً ليطردَ المَلَلَ من نفسه، مدَّ يدَيه إلى الأمام، فخرجَت من الظِّلِّ أسطوانتان قميئتان، ثمَّ تلاقتا استجابةً لفعل الجسد الأصيل. رقص استجابةً لموسيقى صاخبة تهدرُ من أعماق حشاياه، فتقولبَ، وتشكَّلَ ظلُّه بأوضاعٍ مختلفة، ولكنَّه بقي أسيرَ جسده، موثوقًا بقوى غيبيَّة لا تردّ...

صحا على نفسه، ابتسمَ وأسرَّ بصوتٍ خفيض.

– إنْ هي إلاَّ لحظات مترَعَة بخيال جامح وسلوك يبعثُ على الضَّحك.

مشى صوب النَّافذة وتأمَّلَ ظلَّه وهو يتَّخذُ تناسبًا عكسيًّا مع المصباح المتدلِّي. صار ذلك الظِّلُّ القميءُ المنتفخُ كبطيخة، طويلاً نحيفًا مثل خيارة، وقفَ أمام ما أبدعَته أخيلتُه المَسكونةُ بأقصى درجات الخلق، وما أنشأته أنامله المجبولة بخَلق كلِّ ما هو خارقُ الجمال: جسدٌ

أنثويٌّ مخلوقٌ من شمعٍ بلونٍ لحمي، بتفاصيلَ دقيقةٍ ساحرةٍ عاريةٍ حتَّى من العري نفسِه، فتاةٌ ممشوقةٌ بطول يـاردة ونصـف اليـاردة تقريبًا، بوجهٍ لا يختلفُ عن وجوه اللَّوحات. ياه، كم هي رائعة هـذه التِّليباثيَّة، وقف يتأمَّلُ وجهَه في المرآة الباذخة المعلَّقة علـى جانـب النَّافذة، ويقارنُ ما يراه في المرآة مع قسمات التِّمثال، الشَّعر المتموِّج المنسدلِ فوق الأذنَين وعلى الكتفَين، مع ضربات أزميل النَّحت علـى هامَة التِّمثال بتلك الحِرَفيَّة المدرَّبَة، العينان العسليَّتان النَّاهلتان اللَّتـان تماثلان الخرزتَين المنغرزتَين تحت الجبين الرَّائب لوجـه التِّمثـال، واللَّتان تعكسان أشعَّة المصباح عسلاً بشمعه، وقارنَ مـدى تطـابق النّدبة بين وجهه الضَّاجِّ بالحياة، وتلك الموجودة تحت الشَّفة السّـفلى للتِّمثال الشَّمعيّ. الاختلافُ الوحيدُ الـذي اسـتنبطه هـو أنَّ الوجـهَ المرسومَ في المرآة لرجل، والآخرَ الواقفَ أمامه هو لفتاةٍ من شمع... مدَّ أصابعَه يتلمَّسُ التَّفاصيلَ بانتشاءٍ غامرٍ جعلَه يغمضُ عينَيـه ثـمَّ يهمس.

– حَتَّامَ الصَّمت...

ثمَّ ينقرُ جبينَه الشَّمعيَّ ويأمرُه...

– أنطقْ يا بشر...

ينتظرُ الآخر... وحين يداهمُه اليأس، يخاطبُه كمَن يُلقي قصيدة:

في البدء كانت الحكاية
وكان اللَّيلُ والنَّهار
ومآسي الإنسان

يتوقَّف، يبلِّلُ شفتَيه، ويواصل:

وكان الإنسانُ ابنَ الحكاية... يطوف
يدخلُ التُّخومَ والعروقَ والصَّحارى والأسيجَة
يعدو في فضاء الرَّبِّ وهضاب النَّاسوت
يبحث... يكِل، يغفو...
ثمَّ ينهض من جديد

يأتيه نباحُ الكلب في الحديقة طويلاً متأسِّيًا متألِّمًا، ثمَّ يتحوَّلُ عواءً فاجعًا متواصلاً، ومن ثَمَّ يُخيِّمُ الصَّمتُ على الأرجاء، يعودُ إلى نفسه، يرفعُ يمناه ويفركُ جبينَه الملتَهِبَ وتنتقِّلُ عيناه نحو الفم الشَّمعيِّ المفتوح وكأنَّه يحاولُ أن ينطقَ بهمسة، يتهدَّجُ صوتُه وهو يخاطبُه..
– لِمَ تؤرِقُني وتعذِّبُني... كلِّمني أرجوك.
يقطعُ الغرفةَ جيئةً وذهابًا، يخلعُ سترتَه ويلقيها بإهمالٍ على الكرسيّ، يشعلُ سيجارةً يلتقطُها من المنضدة، يمجُّ منها نفسًا ثمَّ ينفثُه، فيتحلَّقُ الدُّخانُ دوائرَ تترجِمُ حالتَه غير المتوازنة وهو في وضعه الفريد الغريب، في غرفة داخل بيت معزول ومُسَوَّر بأشجار الزَّان والكستناء والصّنوبر ومجبَّب بليلٍ جهمٍ صفَّدَ قمرَه منذ الأزل حتَّى تقوَّضَ البنيان، وأمامه امرأةٌ فاتنةٌ من شمع سوْرت لسانَها داخل شفتَين شهوانيَّتَين نصف مزمومَتَين، يهمس:

حتَّامَ تبحث...
حتَّامَ تطوف...
حتَّام تحلم،
اللَّيلُ مصيرُ الإنسان

تقرفصَ وأخذَ يتأمَّلُ ضوءَه الشَّمعيَّ وشفتاه تُعيدان... *اللَّيلُ مصيرُ الإنسان*، أقفلَ فمَه بأحكام، وحاولَ أن يغورَ في عينَي قرينه علّه يستشفُّ سببَ عناده ويفكُّ، بالتَّالي، هذا الطَّلسمَ السَّاحرَ في جماله. مدَّ سبابتَه المرتعشةَ نحو الحلمتَين... انفتحت في دياجيره كوًى عَبِقَةً برائحة ذكرى عتيقة، ثقبَ ستارةَ اللَّيل غناءُ جندبٍ يبحثُ عن خلٍّ هجرَه، فاخترقت وجدانَه ذكرًى هلاميَّةٌ سابحةٌ في بحرٍ من لذَّةٍ طواها النّسيانُ فازدردَ ريقُه بصعوبةٍ جمَّة، كادت تفَّاحةُ آدمَ تطفرُ من لسانه، وبإبهامه حرثَ النحرَ بهدوء ثمَّ طوَّقه بكفِّه وعصرَه بقوَّة ونطقَ الكلمات كالفحيح...

– تكلَّم يا بَشَر...

وبالسّبابة والوسطى فركَ الشَّفتَين المكتنِزَتَين، لسعتْه لدغةٌ حادَّةٌ في الصَّدغَين وتقلصاتٌ متعاقبةٌ في ربلتَي ساقَيه وبخور فضيع في ركبتَيه، فتهالكَ بإعياءٍ على بلاط الغرفة وتكوَّمَ إزاء التقاء الرّكبتَين البضَّتَين، رفعَ نظرَه يتملَّى معبودَه، همسَ وهو يغورُ ويستكنهُ تفاصيلَ هذا النَّاسوت المنتصِب فوقه كعمود من سنا...

– هل أنا تليباثي...؟!

وبعد فترة صمت...

– هل عشقت ذاتي؟...

إستلقى على ظهره وتملَّى الرأس، كان يعانقُ السَّقفَ متماوجًا مع وهج المصباح المتدلِّي فوقه تمامًا، أحسَّ للحظة خاطفة أنَّ الشَّفتَين ابتسمتا أو همستا، وأنَّ الرُّموش تتحرَّك استجابةً لفعلٍ حَيّ، ففركَ عينه وهو يُمعن النَّظر عميقًا، وهمس...

– هل أنا أحلم؟... هل يمكنُ أن تتكرَّرَ أعجوبةُ المثّال الإغريقيِّ "بِجماليون" ومعبودته السَّاحرة "جالاتيا"؟...

وتذكَّر تلك الصَّلاة الرَّقيقة للفنان المشبوب بعشق ما ابتكرَته يداه، فردَّدَها بانتشاءٍ ما له نظير:

"أنت، من غير ريب، تعلمين ما ألمَّ بي من برح هذا الهوى الطارىء، وما تام قلبي من حبِّ هذه الدمية التي صنعتها باسمك ونذرتها لك، فدهمتني، وشدهت روحي المبلبلة، وصارت لي أعذب الأماني، وأعزّ الآمال، وهي بعد رخامة لا روح فيها ولا نأمة، أكلِّمها فما تردّ، وأناجيها فما تجيب، وأغنِّي لها فما تبتسم!

"أنتِ قديرة يا فينوس، فانفخي فيها من روحك، وانشري الحياة في أركانها، وامنحيها النبضات والأنفاس".

وقطع عليه صلاته التي ردَّدَها بشفتَي "بِجماليون" صوتُ عواء كلب الحديقة فتذكَّر جدَّته، ذلك القرن المجبّب بالعباءة وهي تحاربُ طواحين الزَّمن بصوتها الثاقب... الكلب عندما يعوي، يعني أن أحدًا من الدار سيموت... وفكَّر... مَن في الدَّار غيري وهذا التّمثال الشَّمعي؟... فإذًا، من الممكن أن ينعكسَ الحلم ويكون أنَّ أحدًا من الدَّار سيولَدُ من جديد...

يحاول أن يستعيدَ وقائعَ الأسطورة. ينظر من النَّافذة، تصطدمُ عيناه القلقتان بعينَي الكلب اللاَّئط والملتصق بالحائط، وفي نظراته توسُّل وخوف وتوجُّس، وحين تلتقي النَّظرات تتواشجُ منها ألفة حميميَّة غريبة فيتسلَّل الاطمئنان نحو الموقين، فترتاح نفسه وتهدأ أنفاسُه ويعود إليه هدوءُه، فيتَّجه نحو المرآة، يحدِّق في وجهه، يرى قسماته وقد عادت إلى سكينتها والتورُّد نحو وجهه، ويلمح من خلف ظهره في عمق المرآة أنَّ التِّمثال قد استدار بزاوية ١٨٠ درجة نحو الباب، إنذهل وخاف وهمس في داخله... ما الذي يجري؟

سمع صوتاً أذهله...

– لم يجرِ أيّ شيء...

جمدَ الدَّمُ في عروقه وصار يسابق تمثاله في جموده، ولكنَّ الصَّوت جعله يوقنُ أنَّه ما يزال باستطاعته استخدام حواسه.

– لا تَخَف...

وبعد برهة لمحه يقفُ أمام التِّمثال الذي كان مشدودًا ومنشدًا إلى جسده... رجل أشقر، رائق القسمات، في العقد الرَّابع، ينتعلُ خفًّا جديدًا ترتفع سيوره نحو ركبتَيه لتلتقيان مع نهاية أطراف ثوبه اللّبنيّ وعباءته المقصَّبة، كان لعينه سحرٌ لا يقاوَم.

– أنا "بِجماليون"... وقد أيقظتني نجواك وأنت ترتِّل صلاتي أمام الرَّبَّة "فينوس"، فجئت أبحث عنك لأسري عنك، وأستكشف بَلواك.

– ولكنَّك أسطورة...

إبتسم الفنَّان ثمَّ نبرَ بجِدّ...

– وإن كان كذلك، وهذا يجانبُ الحقيقة، فإنَّك فوتَّ على نفسك منذ

البداية تحقيقَ أسطورتك...
وبالصّدفة والدّهشة وعدم التَّصديق، ما زال مأخوذًا، سأل.
– وكيف ذلك؟...
– لم تكن مؤمنًا...
– بِمَ؟...
– بمصداقيَّة ما تفعل...
ثمَّ، بعد صمت...
– كنت في تلك البقعة التي تفصل بين الشَّكِّ واليقين، فاخترتَ الأوَّل، أي أنَّك أبيتَ تصديقَ المغامرة...
إنخَرِطَ في اللّعبة، حاولَ أن يبرهن لنفسه أنَّ ما يحدثُ معه هو الواقع، وكأنَّ المثّال الإغريقيَّ استنبط دخيلتَه، أفردَ سبابته أمام وجهه وقال جادًّا محذِّرًا:
– إيَّاك!!...
وبعد أن بلعَ ريقَه:
– هذا هو خطئكم... ضيقُ الخيال...
– ماذا تعني؟
– صدِّق ولو مرَّةً بمصداقيَّة ما تفعل!...
– وهل تفعل أنتَ هذا؟...
– سبقَ أن فعلته مع جدَّتها...
ثمَّ التفت بكلِّيَّته نحو التّمثال الشَّمعيّ. إبتسم بوجهه، ثمَّ صالب كفَّيه على صدره، ورفع رأسه في وضع المُبتَهل وهمس بمُناجاةٍ رقيقة.
– ربَّاه... "فينوس"، يا ربَّة العشق والحياة.
ثمَّ همس صلاةً خافتة، اختفى جسدُه كمَن صعقته البرداء، ثمَّ مدَّ سبابته نحو التِّمثال... سرتِ الحياةُ في أوصال الآخر فمدَّ ذراعَه

الشَّمعيَّة وتلامست السّبابتان، تضوَّع فضاءُ الغرفة بعطرٍ غريبٍ يجعلُ الحواسَّ في حالة تأهُّب، فتيقَّظت حواسُّه ودخلت دائرةَ الإنذار وهي تحاول عبثًا البحثَ عن "بِجماليون"، كان قد اختفى من الغرفة بلمح البرق مثلما دخلها، كلُّ شيءٍ كان يدلُّ على وجوده اختفى واضمحلَّ معه، ولولا اليد الممدودة للتِّمثال والسّبابة المشرَّعة ليده اليمنى لكان متيقِّنًا أنَّ كلَّ ما جرى كان مجرَّدَ حلم أو رؤية... وممَّا عزَّزَ عنده اليقين صوتُه وهو لا يزالُ يردِّد:

– لم تكُن مؤمنًا...

صرخ بكلِّ قواه...

– الحلّ؟...

– سيبقى مجرَّد تمثالٍ من شمع.

واختفى الصَّوت، داهمَه العواءُ مرَّةً أخرى، لجوجًا، مؤسيًا، حزينًا، ارتداه القرن من الزَّمان وهو يهمس... فناء... فناء... يعني موت... الصّقنة... وللصّقنة سياطٌ تهمي، تلفح، تنغرزُ في أوصال الذَّاكرة والوجدان فتجعل المرءَ في حالة عدم توازن تتناوشُه عواصفُ التِّيه واللَّمبالاة والألم، ألمٍ ممضٍ يتغلغلُ في حنايا الخلايا فتعوي الأعضاء مترجمةً عمقَه في الرُّوح والجسد...

– أين أنتَ يا خلِّي؟...

وبعد برهة توقَّفَ يصرخُ ثاقبًا سدلة اللَّيل الأبكم...

– يا صِنوي...

يردُّ الكلب على نداء الثَّاوي بعويل طويل هو مزيجٌ من نباحٍ ذليلٍ وعواءٍ ضارٍ...

– أين ذهبت؟...

فيُعاود "بِجماليون" ظهورَه الأثيريّ، وطيفُ ابتسامة شـفوقة ترتسـمُ على محيَّاه، يقف إزاء جسده المختضّ، يتأمَّله بودّ، ثمَّ يمـدُّ أناملـه النَّاحلة البضَّة ويلمس كتفه، يحسُّ أنَّ ثمَّة تيَّارًا ينسـلُّ إلـى داخلـه ويتلبسه شعورٌ أشبهُ بحالة تجلٍّ، أو حالة تماه، أو تسامٍ، وأيًّـا كانـتِ المسميات، فإنَّها لن تترجمَ أحاسيسه في تلك اللَّحظة، فقد أحـسَّ أنَّـه يستطيع أن يستغورَ داخله الصَّافي مثل ماء نبع في شعف جبلٍ يناطحُ أنفاسَ الآلهة، أو الملائكة، أو كائناتٍ غير محسوسة بل مستنبطة من الصَّفاء والنَّقاء والبراءة، فرفع طرفَه ونظر في وجـه "بِجمـاليون"، وكانت عيناه تقرأان داخله المعشَّب بالصَّحراء والصّـبَّار والكثبـان الرَّمليَّة الثَّابتة والمتحرِّكة، غضّ طرفه وهو يشعر بالشّنار، مدَّ الآخر سبابته وإبهامه وأمسك بحنكه، ورفع رأسه، وحين تواصل الخطَّـان بين العيون، عينَي "بِجماليون"، وعينَيه، سمع صوتَ "بِجماليون":

– عندما تتلبَّسُك حالةٌ مثل الذي عانيتها قبل قليل، يمكـن أن تسـري الحياة في هذا...

ومدَّ سبابته نحو التِّمثال المسحور بحضوره، ثمَّ اختفـى "بِجمـاليون" وصوته يغمر فضاء الغرفة...

– حاول للمرَّة الأخيرة.

فكَّر... إنَّ مجرَّدَ وجود هذا الفنَّان الخالد في غرفته ومحاولته إبـداء المساعدة له، اعترافٌ بموهبته كفنَّان قطع شوطًا هامًّا للاكتمال، إنَّـه يحسُّ بوجود الآخر، من خلال وضعه الفريد وسط المرسم، واللَّيـل السَّادر في الخارج عبارة عن القماشة البكر التي سيضع عليها لوحته الأثيرة السَّاعية إلى النُّضوج... نعم، ربَّما سيرسم معبودتَه الشَّـمعيَّةَ

حين تسري نفحةُ الخالق في أعطافها، وخطف نظرة نحـــو التِّمثـــال، وجدَه مأخوذًا بنظرة ساحرة نحو نقطة ما في الفضاء وكأنَّها تحـــاول اللّحاقَ بالفنَّان الإغريقيِّ الذي لا يزال يحسُّه في الغرفة، تقـــدَّم نحـــو التِّمثال، نظر إلى عينَيه الزائغتَين ثمَّ همس وقد أفرد ذراعَيـــه إلـــى أقصاهما مثل كاهنٍ آشوريٍّ، أو إغريقيٍّ، أو رومانيٍّ، لا ضَيرَ فكلُّهم سواء، إستجمع كلَّ أحاسيسه في رؤوس أصابعه النَّاحلة المفردة ثـــمَّ همس:

– إسمَعيني يا صبيَّة...

ثمَّ، بعد فترة صمت:

– سأدع قلبي يصلِّي لأجل أن تسري الحياة في روحك، وسأعصـــر خلاصة ابتهالي ووَجدي وسَعيي نحو خلق الحيـــاة بـــرأس ســـبابتي اليمنى، وأملي، كلُّه، أن يحدث هذا عندما تمدِّين ســـبابتك لملامســـة سبابتي... ثمَّ أغمض عينَيه وأخذته غمامةٌ تصفرُ فيها الـــرِّيحُ التـــي حملته إلى أقاصي الأرض المتباينة فطورًا يعرق جسده كلَّه فينضـــي عنه كنزته، وأخرى يحسُّ بالدّعة والرَّاحة فتتمدَّد أوصـــاله، وثالثـــة يغمره المطر فيستدعي أعضاءَه ليتكوَّر جســـدُه كالقنفـــذ، وأخـــرى تعصف به رعدة ممسوس بالحمى فيصير ناسوته ساعةَ تنبيه يهتـــزُّ جرسها بتتابع نظيم وتسارع مبرمَج!... وعيون اللَّيل تبحث من خلال فتحات السِّتارة الأرجوانيَّة لنافذة الغرفة وتحاول أن تســـتكِّنَه كينونـــة هذا الإنسان العصابيّ وهو يمارس طقسًا فريدًا في التحكُّم بالجســـد، وقسمات وجهه تترجم المراحل التي يمرُّ فيها هذا المخلوق المســـكون بالغرابة والعزلة والجنون...

فتح عينَيه ثانية، كان لهما بريقٌ خاطفٌ كعيون الهَرَرَة فـــي شـــباط، وثمَّة ارتعاشة متواصلة في شفته السّفلى المزمومة، ووجـــوم آسِـــر

يجبِّب قسمات وجهه، قذف نظرةً عَجلى، حَيرى، متوثِّبة، مترقِّبة، نحو سبابته، كانت كتلُ الجليد، أو كثبانُ رمليَّة، أو فراغٌ مفتقدٌ أيَّ جاذبيَّة، يطوِّق المسافة بين السّبابتين، تعرَّشت حناياه بالصّبَّار والجفاف، وتشقَّقت أدمةُ الأرض الخافقة في قفصه الصَّدريّ، فترك ذراعَيه تسقطان على جنبَيه كمجدافين لزورق تائه وسط بحر هائج، افتقد أيَّ أمل في النَّجاة... فخرج الصَّوت، صوته، أم صوت "بِجماليون"، زاخرًا بالخيبة والشَّجن والأسى.

– لا فائدة...

تقرفص على الأرض بهدوء، وأنشأ يتأمَّل المعبود، مجرَّد شمع على شمع، قد يجتمع فيه الجمال السَّاحر والرِّقَّة اللاَّمتناهية والأنوثة الطَّاغية التي تجعل المَيْتَ يتململُ ويحاولُ الإمساكَ ببقايا الرُّوح الهاربة ليرتديها ناسوته البارد حبًّا بهذا الكيان الماثِل أمامه الذي يجعله يلغي سفرته السَّرمديَّة ويعاود القهقرى إلى نقطة الصّفر، ولكن، كلُّ هذا الجمال والرِّقَّة والأنوثة تفتقدُ الجوهر، النَّبع، الحياة، إنْ هو إلا تمثال من شمع، يسمع صوتًا به نفحة من ثقة...

– حاول مرَّةً أخرى، دَعِ الخالق الكامن في قمقمه ينطلق...

مدَّ أناملَه ثانية، وأغمضَ عينَيه مرَّةً أخرى ثمَّ تلا صلاته، أحسَّ أنَّ تهجُّداته تخرج من فمه ككرات ثلجيَّة، باردة، لا حياة فيها، وأيقنَ أنَّ ما يحلم به محال، وأنَّ كلَّ محاولاته محكومٌ عليها بالفشل، وأنَّ "بِجماليون" أُصيب بخيبة أمل، وربَّما سيشكُّ في المعجزة التي حدثت في زمنه، وأنَّه كان مجرَّد حلم لذيذ، أو سراب أو وهم، وبهدوء لم يعهده من قبل، مدَّ كفَّيه وأحاط بخصر المعبود الشَّمعيّ، سمع همسًا،

أو رجاءً، أو ابتهالاً...

– لا تدعِ الظِّلالَ تستوطنُ شمسَ الخلق في حشاياك...

صمَّ أذنَيه وحمل معشوقتَه بين يدَيه ومشى صوب المدفأة الحجريَّة المطمورة في الحائط المواجه للنَّافذة، وببرودٍ صقيعيٍّ ألقاه في النَّار، تناهى إليه التَّوسُّل ثانيةً:

– لِمَ فعلتَ هذا؟... كانتِ النَّفحةُ تتشكَّلُ في الأعماق...

ولشدِّ دهشته وجد الوجه، وجهَ ساحرته يتغضَّنُ ويتحزَّزُ من الألم وبقايا آهة واهنة تخرج مثل نسمة ربيعيَّة فوق الشَّفتَين المنفرجتَين...

– "فينوس"... "فينوس"...

وحدَّق في الباب، فرك عينَيه ولهج...

– هل هذا معقول؟...

وأمامه لمح "فينوس"، أقيانوسُ بهيٌّ من الجمال الآخَّاذ، يمدُّ يده إلى النَّار، ثمَّ تنسلُّ من الجوانح، جوانح معبودته، كرةً من ضياءٍ مؤتلَقٍ وتطير خارجةً من النَّافذة...

– إنَّها "فينوس" يا صديقي، استردَّت أمانتها التي زرعَتها في ساحرتك!

هتف مسلوبَ الإرادة...

– لم تأخَّرت؟

جاءه صوت "بِجماليون" وهو ينأى...

– كانت صلاتك، مثل حساء على نار هادئة...

وبعد فترة صمت...

– الحظُّ لن يطرقَ الأبواب مرَّتين...

وفي المدفأة، كان المعبود، مجرَّد شمع يتماوعُ تحت أسياخ النَّار

الصَّفراء إلى أن تلاشى في الآتون، وأرسل إلى فضاء الغرفة عطرًا زكيًّا غريبًا في رائحته، فأحسَّ أنَّ النَّار تتدفَّق إلى جوفه والسَّعير يحرق الأخضر واليابس في أعضائه والحياة تنسلُّ من عروقه، فرفع عينَين دامعتَين نحو الحيطان، وكان آخر ما احتوته العينان والأذنان والحنايا:

الصُّور المعلَّقة على الجدران والتي تفصح صور الإله التِّيباثيِّ الرَّابض في كوى بعيدة داخل الأطر، وعواء متواصل مقهور مُكتَوٍ بالخيبة والأسى وبقايا ضياء بارق ينسلُّ متدحرجًا من أعماق صدره ويتجوَّل في الغرفة راسمًا في ذاكرته السَّرمديَّة صورةً فريدة، في ليلٍ فريد، تحتفل برجل ممدَّد على ظهره وقد تفحَّم جسده بفِعل حريق غريب، الشَّيء الوحيد الذي يحتفظ به عينان مفتوحتان على سِعَتَيهما تبحثان عن شيء نفيس فقد منه وربَّما... إلى الأبد.

المَلحَمَة

هو:

من مَكمَني الرَّاسف باللَّيل السَّرمديِّ لا أُبصرُ سوى داخلي المغتَسِلِ بشمسٍ سرمديَّة؛ وأمَّا ما وراء السُّور الشَّاهق الذي يعتقلُ عينَيَّ

ويضعُ حاجزًا ناصعَ البياض بيني وبين ما يُحيط بـــي، فهـــو عـــالمٌ غامض، مدهش، سرِّيّ، بِكر... يترامى ويتصادى خلـــف الحـــاجز الأسود للنظَّارات الثَّقيلة الجاثمة على أرنبة أنفي... أنا لا أبصـــرُهم بعينَي، بل أستشفُّ أبعادَ كلماتهم التي تتبعثرُ في الفضـــاء كفقاعـــات الصَّابون، أهمسُ لنفسي...

– ما رأَوْه قطُّ على حقيقته مثلي.

وأفلتَتِ الكلمةُ الأخرى كسجينٍ تحرَّر من قيوده.

– ومثل الآخر...

ردَّدتُ الكلمةَ مرَّةً أخرى.

– الآخر...

وبأسًى وحسرةٍ لطمتُ الفضاءَ بلَوعتي.

– أين أنتَ أيُّها الآخر؟...

فأنا، والآخر... كنَّا كالظِّلِّ الذي يتبعُه، أو كالهالة التي تطوِّقُ هامتَـــه أنَّى ما حلّ، وكنَّا نحن الثَّلاثة آصرة لم ننفصلْ أبدًا.

الآخَر:

إنَّه عَينُه. لم يتبدَّلْ فيه شيء سوى انتشارِ النَّديف الأبيض في السَّالفَين والشَّارب الكثّ، واسوادِ العدسات التي تغطِّي عينَيـــه، وتبـــدو مـــن اهتزاز رأسه المتواتر وتقوُّس حاجبَيه استجابةٌ للكلام الذي يرقى إلى مسامِعه؛ إنَّه فقدَ آخر ما تبقَّى من بصره، وأمَّا ما خلا هذا فلم يطـــرأ عليه أيُّ تغيير، فالشَّعرُ المُسدَلُ ما زال كما في الأيَّام الخوالي مدهونًا ومسرَّحًا، تتموَّجُ خصلاتُه مع النَّسيم الهاطِل كالمطر الرَّبيعـــيِّ مـــن

الأبواب الموارِبَة والنَّوافذ المشرَّعة، وما زالت ذراعاه تحتضنان آلةَ العود مثل الكنغر في تفرُّده في احتواء أبنائه، الشَّيء الوحيد الذي تميَّز به الآن، هذا التَّهالكُ على التَّدخين، فهو عبارة عن مدخَنَة لا تتوقَّفُ عن العطاء، عطاء خائب لدوائر من دخان أزرق حائر ينتحرُ بعد هنيهةٍ من الإبحار في الفضاء، وبدنُه أصابَه بعضُ البدانة والتَّرهُّل؛ ولكنَّ أناقتَه هي هي، رجلٌ في كامل الأناقة، ولكنَّه حزين جدًّا. أشعرُ بالنَّحيب المحتَبِس في حشاياه، تلتقطُه أذناي المرهَفَتان والمدرَّبَتان على استِكناه أدقِّ التَّفاصيل الحبلى بالإبداع...

منذ الأيَّام الخوالي، قبل أن تفرِّقنا الشَّمسُ، ومعها القمر، في لعبتهما الأزليَّة في تبادل الأدوار، حيث تشتَّت كلٌّ إلى مصيره، وتفتَّت الآصرة إلى أجزاء بفعل عنصر آخر هدم كينونتها وحوَّلها عنصرًا جديدًا متشَكِّلاً من أشلاء الآصرة المَيتَة...

فالكروان إلى ما وراء البحار، وأنا ورحلتي الغامضة نحو ذلك الحاجز الذي تعجزُ الذَّاكرةُ عن اقتحامه كي يجلوَ الغموضَ الذي ارتدى أيَّامي الآتية وجعلَ كلَّ أيَّامي تدورُ في بحثي المجنون عن كينونتي وسط مدنٍ عديدة، وبيوتٍ جديدة، وأزقَّةٍ أخرى، وحدائقَ تلفظُني إلى حدائق، وضياعٍ يسلِّمُني إلى آخر. ثالثُنا فقط، عاشقُ العود، آثرَ البقاء في المدينة يبحثُ ويجاهدُ في إيجاد عنصرٍ مساعدٍ يجعلُ الآصرة تعاودُ من جديد تلاحمها واتِّحادها، أفلحَ أخيرًا في جذبي، حين قرأت عيناي الباحثتان أبدًا عن الانعتاق والهرب من مملكة التِّيه إعلانًا عند كشكٍ يبيعُ الصُّحف والمجلاَّت عن قيام أحد الأندية الاجتماعيَّة بإحياء أمسيَة فنِّيَّة استِذكارًا للمطرب الرَّاحل...

هو:

– آهِ... يا صديقَيَّ، كم أفتقدُكما؟

وبعد فترة صمت.

– الأوّلُ غيَّبَته الحياة، والآخرُ غيَّبَه الزَّمن.

أفكِّر... حقًّا إنَّ الموجة، عندما تجنّ، تفرشُ جنونَها على كلِّ شـــيء، والموجة التي فرَّقتنا نحن الثَّلاثة كانت أعتَى ممَّا نتصوَّر.

نفضتُ رأسي وأسرَرتُ لنفسي:

– منذ زمنٍ بعيدٍ لم أرَ الآخر، ترى أين هو الآن؟ وما الذي فعلَت به الأيَّام؟

وأنتبهُ إلى أحد المتكلِّمين بصوتٍ به تَشَفٍّ يفضحُه الميكروفون.

– وأودُّ أن أعلنَ أنَّ الرَّجلَ أخذ أكثرَ من حقِّه. حتَّى الأغنية الشَّهيرة التي تُنسَب إليه... غنَّاها آخرون... قبله، فهي من التُّـــراث القـــديم المتوارَث.

غامت الرُّؤى واكتسى ضبابٌ أسودُ عينَيّ، كدت أنهـــضُ وأُحـــاججُ وأزجرُ المتكلِّم، لولا أنَّني تسلَّمتُ، بغتةً، إشارةً خفيَّةً نـــادرة، إشـــارةً على شكل تنهيدة لا يستكنها شخصٌ غيري، فهمستُ لنفسي مذهولاً.

– إنَّه هو، الآخر...

وبعد صمتٍ استجمعتُ فيه كياني:

– معقول؟!...

ومن غير إرادتي رفعتُ أناملي نحو النظَّارة ناويًا خلعَهـــا، ولكنَّنـــي أحجمتُ عند اليقين المتأصِّل الذي يعاودُ تجذُّرَه في دخيلتي.

– الآخرُ اختفى من حياتي، مثلما اختفى المطرب، في سنةٍ واحـــدة، ربَّما تكونُ إشارة مشابهة.

ثمَّ، بأسًى عميق:

– وتركاني وَحدي، مثل نورسٍ ضالّ.

واستوفزت ذاتي القلقة عندما تسلَّمتُ الإشارةَ ذاتها.

– إنَّه يقينٌ محتَّم... الآخرُ هنا.

وأنتبهُ إلى متكلِّمٍ جديد، نبرةُ صوته دافقة حماسيَّة.

– إنَّ المطرب العزيز الرَّاحل، لم يأخذْ حقَّـــه، فإنَّـــه يُعتبـــرُ بحـــقٍّ العندليبَ الذي ترجمَ بشَجوه أحاسيسَ شعبنا ومشاعرَه.

ويتكلَّمون عن المطرب الرَّاحل، بين مادِحين، وهم كثر، وقادحٍ واحدٍ لحدِّ الآن.

الآخر:

قرأت الخبرَ أكثرَ من مرَّة، انهارت الأسوار التي كانت تصفدُ ذاكرتي وتسلَّلت شمسٌ فتيَّةٌ تخترقُ الأدران العالقة بالبصيرة، وأخـــذ قشـــر البصل الذي يكبِّل ذكرياتي الغائبة يضمحلُّ ويتلاشى أمـــام الصُّـــور التي تدفَّقت كالشّلال تغسلُ التِّيه. أتمعَّنُ في الصُّورة بعمقٍ ولوعـــة، يعانقُني الوجه الصَّبوح الطُّفوليُّ الوسيم بربطة عنقه البنِّيَّـــة الأبديَّـــة وتلك النَّظرة العميقة البارِقَة التي كان يتميَّز بها. إقتحمَـــتْ تفاصـــيلُ الوجه جذاذاتِ روحي، وتفاعلَتْ مع وجـــداني وروحـــي، وابتـــدأت الصَّولة: إنفرطَ شريطُ الذِّكريات من القمقم وتتالى في صور ســـاحرة مغلَّفة بالضَّباب مثلما تتبدَّى الدُّنيا بأشجارها وأنهارها وغاباتها البِكر

ساعةَ الشَّفَق، فاحتواني الصَّحو من كلِّ صَـوب، والصُّـورة بكـلِّ تفاصيلها تخبرُني عن تلك الأمسِيَة التـي تحـدَّثت فيهـا الصُّـحف والوسائل السَّمعيَّة والبصريَّة عن تألُّق المطرب وسموِّه وارتقائه إلـى مرتبة المتصوِّفَة والتَّخاطريِّين وهم يمطرون الفضاء بصـداح آلاف المؤدِّين، مؤدي الملاحم والجوَّالين والدَّراويش والمستَبصرين، يزفُّهم إلى تخوم النِّرقـانا صولات العود الذي تسامى بين يـدَي العـازف الشَّابِّ الذي أراه الآن في الصُّورة يحتلُّ الجانب الأيمن منها ونظراته تعانقُ اللَّيل البغدادي بمودة وأمل؟ وهو لا يحسب، ولا يخطر في باله قطّ، أنَّه سيكون نزيلَ هذا اللَّيل، يُحصي ساعاته ويسامره باحثًا عـن نفسه الضَّائعة، وهو يُناغي اللَّيل، ويتوسَّلُ النَّهار في مساعدته علـى إيجاد الضّلعَين ليكتملَ مثلَّثُ الإبداع من جديـد... نظرتـي العميقـة والطَّويلة إلى الصُّورة جذبت انتباهَ صاحب كشك الصُّحف الذي مشى نحوي ثمَّ جلس جنبي وشاركني النَّظرَ فيها... أحسسـتُ بالفيضـان ينبجسُ مُحتدِمًا من داخلي ويهدرُ إلى منخريَّ؛ وانبثق السَّيلُ الجارف يغسلُني ويطهِّرُني فأخذتُ أنشج، ثمَّ تحوَّل نشيجي بكاءً، بكاءً له بداية ولكن لا مطافَ منظورًا له.

هو:

جلُّهم يمدحُ عطاءَ المطرب الأصيل ، إلاَّ ذاك. أُقرُّ من مَكمَني وأنـا ألوذُ بصمتي المصطخب، أنَّ كلامَه به عن الصِّحَّة الشَّيء النِّسـبيّ، نعم، إنَّ الأغنية كانت متداوَلَة في الأعراس منذ قرونٍ عديـدة، فقـد أورثها الجدود للأبناء والأحفاد مثلما أورثوهم أسماءَهم، فقد انتقلـت

إلينا، وكأنها صنو شهيقنا، منذ الجَدِّ الأزلـــيِّ الأوَّل، مـــرورًا بنـــا، وسيتوارثُها حفيدُنا الأخير... هذه الكلمات الأصليَّة كانت عبر تعاقب الأزمان تتسيَّد الأغاني الكثر التي كان يؤدِّيها أبناءُ القرى المتمرِّسون أبَّان الأفراح في الأعراس والأعياد، وكانت أصواتهم والأغنية تصدحُ في حناجرهم، تتسامى لتعانقَ منابعَ الغـــدارن، ونواصـــيَ الجبـــال، وآهابَ السُّهوب، ولججَ الوديان، تسافرُ نحو قصبات البردي وصمت الأهوار عند الشَّفق، وذؤابـــات البيبـــون والقـــداح ودمـــاء شـــقائق النُّعمان... نعم كانن تتناقلُها الطُّيور، وكذلك الدَّواب، الرِّيحُ والنَّســـيم، الشَّمسُ والقمر، ولكنَّها كانت مجرَّدَ أصوات، مهمَّتُها حملُ الكلمـــات وإرسالُها من صقيع إلى صقيع مثل حامل الأخبار الذي ينقلُها بحياديَّة وحرص من دون أن ينظرَ في دواخلها وجوهرها، أصوات تفتقدُ إلى استجلاء روح الشَّاعر الأوَّل الذي نسجها من جمار روحه، أصـــوات لم تتمكَّن من الغوص في صدفة الشِّعر وإخراج اللُّؤلؤة، من يتســـامى مع القصيدة وواضع القصيدة، من يجعل الحرف والكلمات تتســـامى، تصلُ حدَّ التَّوحُّد بالأشياء، من يجعل المتلقِّي لا يـــردِّدُ الكـــلامَ مـــع المغنِّي كالببَّغاء، يمسّ القشرةَ من دون الغوص فـــي الـــرُّوح، بـــل يتماهى مع المطرب ليجعلَ الأغنية ترافقُ الزَّمانَ والمكانَ أيًّا كـــان، وأينما كان، في الجبل، الوادي، السَّهل، الصَّـــحراء، فـــي الضَّـــيعة، القرية، المدينة، في الأرض، في السَّماء... كان يقولُ للآخر...

– إنَّني أحسُّ وكأنِّي أم تتهيَّأ للطَّلق.

وكان الآخرُ يُرسلُ ضحكةً كالرَّعد، فأهرعُ إليه وأكمِّمُ فمَه وأهتـــفُ بحنق.

– إخرَس أيُّها الفوضويّ، ستطردُنا الحيزبون شرَّ طردَة.

وبعد صمت أهمس.

– هذه خامسُ غرفةٍ نؤجِّرُها هذا العام.

فقال المطرب...

– إسمَعا ما سأقوله.

وأمام سحر شخصه أنشدَدنا إليه، همس.

– سنجعلُ هذه الأغنية تنطلقُ من قمقمها، وسنؤدِّيها بأسلوبنا الخاصّ.

ومدَّ يده إلى جيب قميصه، وأخرج أوراقًا مطويَّة، فضَّها، أعطاني واحدة، وللآخر واحدة، واحتفظ لنفسه بالثَّالثة، وقال:

– ألقوا نظرةً معمَّقة.

ونفعل، كلمات الأغنية هي نفسها التي كنَّا نردِّدُها في شعاب الجبال المكلَّلَة بغابات الصّنوبر والزَّعرور والجوز والسّنديان، وأيكات الصّفصاف والأثل والنَّخل، ومويجات الأهوار الحبلى بالبردي والقصب والزَّاخرة بالخضيري والحبار وبطِّ المياه المهاجر، وكثبان الصَّحارى وبحار الرِّمال ونواح الصّبَّار، ما أحسَسنا به فقط وجعلَنا مذهولين هو تلك النُّوتة الغريبة التي تختلف تمامًا عن اللَّحن الذي درجت على ترديده الأجيال تلو الأجيال، صحوت من الذُّهول، ألتفتُ إليه، كان المطرب يحدِّقُ فينا بعينَين أحسستُ أنَّهما مُستَعارتان من كائنٍ آخر، ارتعدَت أوصالي وأنا أتملاَّه، وفي لحظة وامضة تيقَّنتُ أنَّ الذي يجلسُ قبالتَنا ليس صاحبنا، بل شخص آخر، همست.

– ما هذا؟...

عاد الآخرُ إلى صوابه، وحين حدَّقَ فيه، والتفت إليّ، وجدتُ في

عينَيه بحرَ الحيرة نفسه الذي يزجُّني من موجة عاتية إلى أخـــرى... فهمس باسمه والمطربُ لا يزال كالتِّمثال، تمثالٍ من لحـــم وعظـــام وجلد. شهيقٌ وزفير، قمتُ من كرسيّ، هزَزتُه بعنف... صحا، كـــان مثل مسافرٍ حطَّ رحاله من سفرة بعيدة لأصقاعَ نائيةٍ متجمِّدةٍ يرتعصُ وقد مسَّته البرداء، أسنانه تصطك، أنفاسُه متلاحقة متهدِّجة، جـــاءني صوتُه مثل دقَّة ناقوس بعيدة..

– ماء.

ناولته قدح الماء، وأنا في حيرة من أمري، والارتباك يعتصرُ الآخر الذي همس.

– ما الذي أصابك؟...

إستعاد هدوءه، ارتحل الاصفرار الذي كان يرتديه وعاد إلى وجهـــه التَّورُّدُ والوسامة.

ثمَّ همس...

– أسمعتُم بالشَّاعر الذي كتب قصيدةً ليست له...

إستَشفَفنا نبرة الغموض في نبرته، لم ننبسْ ببنت شفة...

– غنَّاها أمامي... ولقَّنها إيَّاي... ودوَّن النُّوتة.

بعد أن وجدنا لسانَينا، همسنا:

– من؟...

– الشَّاعرُ الأوَّل.

الآخر:

بكائي الحارُّ الصَّادقُ جعلَ صاحبَ الكشك يتعاطفُ معي بحميميَّـــة،

فربتَ على كتفي برفق، من دون أن ينبسَ ببنت شَفَة، ولكنَّه استنبط وبإحساس مرهف كونه يمتهنُ عملاً يتمركزُ حول ما تُنتجه الذَّاكرات التي تعملُ بدأبٍ لا يرتاحُ ولا يستكينُ في حنايا الرُّؤوس الحبلى بالاختراع والخَلق. إنَّ هذا الرَّجل الأشعث ذو الخرق التي بالكاد تسترُه يحملُ في داخله إنساناً حطَّمته رُحى كادت تودي به إلى الانطفاء لولا الصُّورةُ المطبوعةُ على الجريدة، تناولَ الجريدة برفق وتفرَّس فيها بعمق، وحين تأمَّل وجهي الأنيق سرَتْ في أناملِه ارتعاشةٌ قصيرة، ثمَّ حوَّل عينَيه يتملَّى تفاصيل وجهي لبرهة غير قصيرة، توقَّفَ بؤبؤاه على بؤبؤيَّ ثمَّ تحوَّل نحو الصُّورة، ران عليه صمتٌ ثقيل، وكأنِّي به ينتحب، أسمعُ نحيبَه هناك عميقًا في الكينونة، أحسُّ أنَّ روحه ارتدَت جسدي في الحالتَين: الحالة الرَّاهنة، وزمن الصَّورة، رفعَ رأسه، همسَ بإعياء.

– أهذا أنت؟...

ثمَّ بلع ريقَه واستطرد متسائلاً:

– صحيح؟!

وأجابته دموعي... أنا موقِنٌ أنَّ الدُّموع التي انساحت لم تكن من موقيَّ بل من مكانٍ آخرَ أجهلُ مصدرَه، ربَّما كان من جسدي، أو من جسد شخص آخر، هذه الدُّموع المَمسوسة كالريِّح المجنونة كانت تطردُ كلَّ طبقات النّسيان والتَّبلُّد والضّياع التي كانت تسوِّرُ روحي، بصري، بصيرتي، وفي لحظةٍ رهيفة، ناصلة، حادَّة، كنصل السِّكِّين، تدفَّقت الذِّكريات إلى كياني كمطر ربيعيٍّ منعش، وتشرَّبت الذَّاكرة المتحجِّرة، المُحلَة، باليقين، واحتشدتِ الصُّور تقتحمُ ذاكرتي

كالفيضان، أو السَّيل، أو الموجة العاتية، فإنعتقت من عقالها، أو مصباحها، أو قمقمها، أو قلعتها القاسية القصيَّة، وتذكَّرت التَّفاصيل بالتَّدريج، ومن الصِّفر، من اللَّحظة التي استقلَلتُ فيها الباص السَّريع الجديد، وحتَّى بدء رحلتي المُضنية، ومحاولاتي العديدة الفاشلة لاستِشفاف ما بعد الرُّكوب، ذهبت، الواحدة تلوَ الأخرى، أدراج الرِّياح...

همستُ لنفسي بلسانٍ وصل أخيرًا كمركبٍ تائهٍ إلى المنار...

– كم هو صعبٌ، ومُضنٍ، وقاسٍ، أن يتيهَ الإنسانُ في مَهاوي الضّياع.

وعانقت عيناي الوجهَ الودودَ لصاحب الكشك، واستطردت بهدوء يفضحُه فرحٌ لا حدودَ له.

– كم هو جميلٌ أن يقتنصَ الإنسان ذاته الضَّائعة؟

وأومأ برأسه موافقًا من دون أن يستشفَّ مدلولَ الكلمات، فقد كانت الحيرة توأمَه في هذه اللَّحظة النَّادرة التي يكتشفُ منها أنَّ هذا الرَّجل الجالسَ على صفيحة كاز صَدِئة بثيابه الخلقة يقتنصُ ذاته من جديد، ابتسمتُ له وقلت:

– أتمانعُ أنْ تكون أوَّل صديق لي بعد عودتي من ذلك العالم.

فهمس بِودّ.

– أين كنت؟

– في مجاهل الضّياع.

فهمس بلذَّة المُكتَشِف.

– فقدان ذاكرة.

رفعتُ الجريدة وأشرتُ إلى الصُّورة وقلت.
– هذه أعادَتني إلى هنا...
وأفردتُ ذراعي، وبحركةٍ دائريَّةٍ احتويتُ الشَّارع بما يزخرُ فيه من خلائق ومركبات، ووضعتهما في المدى المحصور بين الذَّاكرة المغيَّبة الرَّاحلة، والذَّاكرة المُهيمِنَة الرَّاهنة.

هو:
إنَّ حدسي لا يخطئ قطعًا، إنِّي أهجسُه، أسمعُ شهيقَه وزفيرَه، إنَّه يحاول أن يبعث رسالة. أستلمُ وشوشةً غامضة، بها شفراتُ وصلٍ ومحبَّة، ولكن ممَّن؟... أخمِّن، بل أقطع أنَّ أحد الحاضرين يعرفُني جيِّدًا، وأنَّه يمارسُ معي لعبة التَّخاطر... هذه اللّعبة مارسناها معًا، أنا والآخر الغائب والمُطرب الرَّاحل، كنَّا نجلس في المقهى والصَّمتُ رابعُنا، ونسافرُ كلٌّ إلى داخله أو إلى وِجدانه، ثمَّ، وبعد الرِّحلة المُضنية والممتعة في آنٍ معًا، نُخرجُ أوراقَنا وأقلامَنا ونسطِّر، وعندما نتبادلُ الأوراق للقراءة نكتشفُ أنَّنا كتبنا أشياء مُتشابهةً تصلُ حدَّ التَّطابق. هذه الخصلة أو الميّزة كانت تتعمَّق وتنمو بيننا بتصرّم الأيَّام والشُّهور والسِّنين، فما إن ينتهي الآخر من كتابة القصيدة حتَّى تستلمُها ذائقتي التي لا تجدُ صعوبةً في تلحينها، ومن ثَمَّ تتلقَّفها الحنجرةُ السَّاحرةُ للمُطرب الحبيب، فتنتشرُ بين النَّاس بسرعة البرق. إنَّ الإشارة التي يُرسلها أحد الحضور في هذه الأمسيَة المخصَّصة لتأبين المُطرب الرَّاحل، سأجعلُها مخصَّصة للاثنَين اللَّذين تركاني وذهبا، الأوَّلُ طوَته البحارُ في مغامرته المجنونة نحو المجهول

وابتلعه خمبابا، والآخرُ الذي ضاع في غابة الأرز... ولم يبــقَ لـــي سوى اللَّيلِ والذِّكرياتِ التي تعلكُ ساعاتي، وغليوني الذي أشاكسُ فيه مشروعَنا المَوؤد، ذاك الذي بدأناه في أوج العنفوان والشّبوة والعطاء. ما زال ذلك اليوم يعيشُ معي كالقرين، حين قال الآخرُ وهو يــدخل الغرفة والبِشرُ يطفحُ من عينَيه.

– كتبتُ قصيدةً مَلحَمِيَّة.

قال المُطرب وهو يضعُ المخدَّة في حضنه ويعتــدلُ علـــى السِّــرير الوحيد للغرفة.

– مَلحَمِيَّة؟!

وردَّدها ثانيةً مع نفسه، ثمَّ همس.

– تأريخُنا سجلٌّ مفتوحٌ للحكايا والأساطير والملاحم.

وبعد وقفة، هتف متحمِّسًا.

– ولِمَ لا؟...

والتفتَ إلى الآخر وهمس.

– هات.

إعتدلَ الآخرُ على الكرسيِّ المُتداعي، فتح درفةَ النَّافذة وتهيَّأَ للإلقاء، ولكنِّي قاطعتُه.

– لحظة.

وأغلقتُ النَّافذة وقلتُ مُناكِدًا.

– لكي لا تهرب العصافير.

ضحك المُطرب، ثمَّ قال:

– سيقومُ العود والطَّبلة بلَمِّ شتاتها ثانية.

قال الآخر...

– سأقرأ الملحمة، حتَّى ولو للحيطان.

وألقى الآخرُ ملحمته، زاملَنا في إصغائنا صمتٌ آسِر، وذائقاتنا ترتحلُ مع حَيواتها المتدفِّقة. كان كلُّ مقطع يرتِّله من الملحمة يحفرُ في روحَينا توهُّجَ الكلمة وسحرَها الخرافيَّ في جمالِه، لتنموَ في وِجدانينا أشجارًا من نخيل وزيتون وتين، وخمائلَ من عنب وتفاح، وبساط قشيب من حبق وخزامي... وعند (الحرمل) العشبة التي جسَّدتِ الفرحَ باقتراب البلوغ نحو نقطة الخلود، والإيثار في مشاركة كلِّ البشر هذه النِّعمة، والخيبة المريرة في إبقاء الجملة نهاية السَّطر، أو الرِّحلة، بلا نقطة تقفلُ وتنهي السّفر المُضني في اكتمال الطَّقس، طقس البحث والمنال والضّياع والتَّهالك والأسى واليَقين بأنَّ لكلِّ جذوةٍ انطفاء، ولكلِّ نوءٍ سكوت، ولكلِّ عاصفةٍ انتهاء، تنتهي الملحمة. وأخلدتِ الأنفاسُ المَبهورة للآخر إلى صمت تدريجيٍّ ارتفعَت معه زقزقةُ العصافير، ونواح الفاختة، وصخب الأطفال في الأفنية والأزقَّة، وصراخ الباعة في فم السُّوق، وسفرنا معًا، نحن الثَّلاثة ونحن نُنصتُ إلى جرس الكلمات التي شيَّدت لها لحنًا غنَّته الأطيار والزّحافات ومخلوقات المياه...

ويلتقط كياني الإشارة من جديد... إنَّني الآن على يقينٍ تامٍّ أنَّ هناك من يتنفَّس معي، ويدخِّن معي، وتسري دماؤه في شراييني!... ويشارك فؤادي وجيبه المتسارع؛ ولكن، مَن يكون؟ الأوَّلُ طواه الموت؟ والثَّاني دخل ممالك الضّياع والنِّسيان... ربَّاه... مَن يكون؟

الآخر:

أراه لا يَستكين، مثل كائنٍ محاصَر، يمجُّ سيكارته ويطلقُ الدُّخان بقوَّة فيتلاشى في الفضاء بعد أن يشكِّلَ خطوطًا متقاطعة لوهلةٍ قصيرة. أستلم لجاجة روحه الأسيرة وهي تبحث عن منفذٍ للانعتاق من خيوط العنكبوت التي تحدِّدُ قضبانَ زنزانة ذاته المعذبة، حتَّى ذراعاه اللَّتان تُمسكان بقوَّة وحنوّ عوده الأثير تراختا وأمسكتا بمسنَدَي الكرسيّ ثمَّ انحدرتا نحو ركبتَيه المُطبقتَين، وتعانقت قبضتا يدَيه عند التقاء الرّكبتَين، كأنَّما يتهيَّأ لقفزة جبَّارة يحلِّقُ فيها في الفضاء بحثًا عن شيءٍ نفيسٍ مُفتَقَد. إنَّني أستلمُ إشارتَه بوضوح، إنَّها دافقةٌ معبَّئةٌ بسؤالٍ مُبهَمٍ عن كنهي. يبدو أنَّ الصَّدمةَ كانت قويَّةً جعلت التقاطاته الإشاريَّة يُصيبُها بعض الوهن، فيتشوَّش عليه جوهرُ الرِّسالة، للحظة، عندما اكتشفت سقوطَه في عالم الظَّلام، إنَّ إشارته أو قابليَّته على التَّخاطر ستتطوَّر، إذ إنَّ الإنسان الذي تُسلبُ منه حاسَّةُ من الحواس يستعيضُ عنها بأخرى، وربَّما الشَّم أقربها، ولكنَّ محاولاته استبيان كنه الإشارة بالتَّلفُّت يميناً ويسارًا واتِّساع منخرَيه تغلِّفها بعض الضَّبابيَّة...

– ربَّما بسبب الصَّدمة بفقده جناحَيه وتعوُّده على الأحراش كطيرٍ مَقصوص الجناحَين. إنَّه الآن يبحث عن الشَّمس التي، بإشراقها، تذبحُ دياجيرَ الضَّباب، ليجلوَ كلّ شيء، يسبح كحوريَّة تحت شلاَّل الضِّياء...

إلتفت إلى صديقي بائع الجرائد، الذي أصرَّ أن يكون – فعلاً – أوَّلَ صديقٍ بعد عودتي من الرِّحلة، ولاسيَّما عندما حكيتُ له كل شيء

ونحن في بيته، بعد أن منحَني كلَّ شيء: الحمَّام، الثيـــاب الجديـــدة، وصداقتَه الحديثة الحقيقيَّة، أصرَّ على أن يصطحبَني إلى الحفل، قلتُ له:

– إنَّه يحسُّ بوجودي.

هو:

يتكلَّمون على سجايا المُطرب الرَّاحل، يعدِّدون محاسنَه، أحد أقربائـــه يتكلَّم ويحدِّث الحضورَ عن سيرته منذ ولادته في تلك القرية الجبليَّـــة البعيدة في أقصى الشَّمال، ثمَّ رحلته في ميعة الشَّباب صحبةَ زميلَيه، الشَّاعر والملحِّن، إلى بغداد، وسعيه الحثيث لإسماع صوته وألحـــان صديقه وشعر الآخر في الأندية الاجتماعيَّة، ومن ثمَّ تسلُّقه الشُّـــهرةَ والذُّيوع في بغداد وفي الخارج مع كرِّ الزَّمان، حتى صـــارَ اســـمًا لامعًا يُسمعُ في أكثرَ من وسيلة إعلاميَّة، فالتِّلفازُ يعـــرضُ أغنياتِـــه، والمذياعُ يقدِّمُ أغانيه كلَّ يوم، والمحلاَّت التِّجاريَّة الخاصَّة بالكاسيتات تتسابقُ لاقتناء ألبوماته، فصارت تنهالُ عليه الدَّعوات فـــي الشَّـــمال والجنوب من البلد، وصرنا مثل سندباد لا يحطُّ رحلُه فـــي جزيـــرة، حتَّى تناديه أخرى، إلى أنْ جاءت تلك الدَّعوة التـــي كانـــت بمثابـــة مسمار النَّعش الذي قوَّض بنيةَ الآصرة وشتَّتَ عناصرَها، تلك التـــي لم أتصوَّر أنَّها ستنفرطُ يومًا، فنحن الثَّلاثة كنَّا ثلاثةً فـــي واحـــد، أو واحدًا في ثلاثة، فكان ذلك الصَّباحُ الشِّتائيُّ المطيرُ نقطـــةَ الانطفـــاء واضمحلال الآصرة، حين دلف الغرفة وهو يتمايـــلُ فرحًـــا وبيـــده مظروفٌ أنيقٌ ينتهي بشريط أحمر، هتف.

– أحزرا ما هذا؟

فبقينا صامتَين، قال وقد زايله الطَّرب.

– ما بكما؟

بقينا على صمتنا، أحسَّ أنَّنا نعرف، فقال وقد زايله الطَّرب تمامًا.

– إنَّها دعوةٌ للسَّفر خارجَ العراق.

وبعد صمت...

– قرَّرتُ الرَّحيل، سأعملُ على استقدامكما حالَ وصولي هناك.

وبعد صمت...

– سأشترطُ عليهم وجودكما معي...

و... ذهب، سافرَ إلى الأقاصي، إلى غابة الأرز، ولم يردْنا أيُّ خبرٍ عنه، ولكنَّنا كنَّا نعلمُ أنَّه يعيشُ هناك... وربَّما يُحيي حفلات، في البدء أرسل إلينا يخبرُنا صعوبةَ سفرنا، ثم جاءَنا بعضُ الرَّسائل، ومن ثَمَّ انحسرتِ الرَّسائل، وتوقَّفت، وبعد أشهر عديدة جاءتني الضَّربة الأخرى التي حوَّلتني من إنسان ، طموحه لا تحدُّه صفحات إلى مجرَّد إنسان يأكلُ ويشربُ ويعدُّ أيَّامه، حين فقدت الآخر، اختفى فجأةً ذات يوم، انصبَّ كلُّ اهتمامي في إيجاده فأضعتُ الأيَّامَ واللَّيالي في البحث عنه، ولكنَّني كنت كمَن يبحث عن قطرة ماء وسط صهد صحراء كافرة مترامية لا تعشقُ سوى سعيرِ شمسٍ لا ترحم وهي ترسل حممَها إلى الرِّمال... فصرتُ مثل طيرٍ بلا...

– أنتَ طيرٌ بجناحَين...

إنَّه صوتُه، يقينًا إنَّه هو، ولكن، هل هو حقيقيٌّ ما أهجسه وأسمعه... أمدُّ كفيَّ نحو أذني، يأتيني صوتُه.

– إنَّني معك... أقفُ جنبَك.

لا، ليس ما أعيشُه حلمًا، بل هو حقيقة قائمة، إنَّه صوت المُطرب.

– ولكنَّك، اعذرني، فقد سمعتُ أنَّك رحلتَ عن عالمنا...

جاءني صوتُه دافئًا.

– عن العالم، أجل منذ زمنٍ بعيد، ولكنِّي الآن معك، ومع الآخر.

هتفت...

– الآخر...

وبعد حسرة.

– الآخر، طوَته السِّنين.

جاءني صوتُه المُفعم بالحياة.

– لكنَّه الآن هنا.

قلتُ في قنوط.

– مثلك، روحٌ بلا جسد.

– إنَّه بروحٍ وجسد...

وبنبرةٍ فيها حسرة على أيَّامٍ سالِفَة بهيجة، همسَ المُطرب.

– إنَّني معكما، أنت والآخر، أتوسَّد جوانحكما معًا.

بكيتُ بكاءً صامتًا، انساحت دموعي على خدَّيَّ المتغضِّنَين، فأحسستُ بسبابة تمسحهما، وصوتٍ رقيقٍ يهمسُ كمَن ينتحب.

– إنَّني لم أرحل، فذاتي موزَّعة بينكما.

الآخَر:

ما الذي يَعتريني؟... لِمَ أرتجف؟!... لِمَ تصطكُّ ركبتاي؟!!

ثمَّة حالةٌ تتلبَّسني، غريبة، لا عنوانَ لها، ولكنَّها خرافية في لذَّتها... أرى صديقي غائبًا عن الحضور كلِّيًّا، وقد قوَّم أذنَيه كسلوقيٍّ يتهيَّأ لاقتناص صيدٍ ثمين، وعيناه المُطفئتان المختبِئتان خلف النَّظَّارة السَّوداء تستجليان صورةً في الفضاء، وشفتاه الرَّصاصيَّتان بفِعل التَّدخين تتمتمان بتواصلٍ لا يهدأ مثلَ سَحَرَة الكهوف، أو كهنة المعابد، وجسده يرتعش مشدودًا نحو نقطة ما، ثمَّ ثقب فضاء القاعة صوت المذيع الاحتفاليّ.

– والآن، أعزَّائي الحضور، أترككم مع رفيق درب مطربنا العزيز الرَّاحل، مع الرَّجل الذي رافق المطرب الأصيل منذ نعومة أظفاره، وهو يلحِّنُ أغنياته التي حفظتها القلوبُ قبل الشِّفاه...

هو:

يُرجعُني صوتُ المذيع إلى القاعة، أنهضُ على مهلٍ وأتحسَّسُ بساعدي آلتي الأثيرة إلى روحي، أضعُها بين السَّاعدين فوق القلب مباشرةً، ثمَّ أنقادُ كطفلٍ يحبو للمرَّة الأولى إلى كفِّ المذيع، يقودني إلى المسرح ويُجلسني على الكرسيِّ المخصَّص لي، ثمَّ أسمعُه يعدل الميكروفون بموازاة وجهي. ثمَّ همس، خلتُ أنَّ المذيع هو الذي يكلِّمُني، ولكنِّي سمعتُ صوتَ المطرب.

– ألَم يحُنِ الوقتُ لنغنِّي المَلحَمَة؟

وزخَّ اللَّحنُ مثل شلاَّلٍ إلى ذاكرتي، همَست.

– أجل، حان وقت المَلحَمَة، اللَّحنُ موجود، هل أعزف المقدِّمة؟

سمعت صوت المطرب، كما في الأيَّام الخوالي، دافئًا، دافقًا، رجوليًّا،

ملائكيًّا.

– هيَّا.

أفلتت من فمي آهةُ حزنٍ عميقٍ استجابةً لنحيب المطرب التي أختصرها بـ (هيَّا) التي زخرت بالحبِّ اللاَّمتناهي، والغياب اللاَّمتناهي، والحضور اللاَّمتناهي... همس:

– هناك مفاجأة في الانتظار.

وصمتي الذي واجهته به كان معبَّئًا بسؤال لا يزال يتسربلُ بالمفاجأة الأولى.

– مفاجأة؟!...

– هيَّا، اعزف المقدِّمة.

ثمَّ تحتويني كفَّاه، يلمسُ خدِّي، أستشعرُ دفقَ الحياة يتسلَّلُ من نهايات أصابعه نحو عروقي، فأتماهى مع روحه المهوَّمة المهيمنة، أسمعُ تصفيقَ الحضور، فأستلّ الريِّشة من جيبي وأُدَوزنُ الأوتار، ثمَّ أنهض نصف قامة وأحني هامتي للجمهور، وبعد أن أسحب شهيقًا عميقًا أقولُ بنبرةٍ خطابيَّة.

– سأغنِّي لكم في هذه الأمسيَة التَّكريميَّة للمطرب الرَّاحل أغنيةَ (المَلحَمَة) التي لم تمهِلْنا الأيَّامُ كي نؤدِّيَها في حينه.

وتخلق ريشتي عالمًا حيًّا نابضًا بالتَّوثُّب الذي لا مدى له، كانتِ الذَّاكرة قد صفدته في مجاهلها فأعتق من أصابعي والأوتار لحنًا، يتصاعد، يسمو، ليبدأ أولى رحلات الإنسان الأوَّل نحو فراديس الضّياع.

الآخر:

همست لبائع الجرائد:

– سيغنِّي المَلحَمَة.

وبعد فترة صمت.

– سأساعدُه إن نسيَ القصيدة...

وقبل أن أقول لجَليسي إنَّه بدأ يتخاطرُ معي، بفِعل قوَّةٍ خارجيَّةٍ غير محدَّدة المَعالم بالنِّسبة إليّ، أحسستُ بلمسة واحدة على رقبتي. إلتفتّ... كان الرَّجل الجالس خلفي مشدودًا نحو الملحِّن، عدت إلى جلستي واعتدلت... ولمسَتني اليد ثانية، ولكن، هذه المرَّة، في خدِّي. إلتفتّ... كان جليسي الآخر في عالمٍ غير عالمي، سوَّرتني الحيرة لفترةٍ قصيرة، ثمَّ سمعت همسَه.

– تعالَ معي...

ورأيته!؟!... بعينيَّ الباطنيَّتَين.

يقف المطرب الرَّاحل إلى جانبي وذراعه ممدودة، نهضت وأمسكت كفَّه، وقادني نحو المسرح كالمنوَّم مغناطيسيًّا.

هو:

يقتربُ منِّي، أحسُّ خطواته، لا، ليس المطرب وَحدَه، بل هناك آخرُ أعرفُه، كلَّما أقترب خطوة، يتعمَّقُ إحساسي بحضوره الجميل، وعلى الرَّغم من أنَّ حواسي مسخَّرة لخلق أجواء المَلحَمَة، بصيرتي، بصري، أناملي، ذاكرتي وهي تحاول أن تستذكرَ نوتةً مشاكسةً تأبى الانصياع، بيدَ إنِّي أمسكُ بها وأقودُها نحو الآذان، أحسُّ وجودَه

الماديَّ وهو يجلسُ قربي، تشوّش فكري وكدت أفقد اللَّحن، بيدَ إنَّني سمعتُ صوته.

– فا... سو...

وأمسكت باللَّحن ثانية، واستمرَرت بالخلق... مهما أسهبت في الوصف لا يمكنني أن أحيطَ بتفاصيل تلك الدّوَّامة التي ألقتني في بحرٍ من السَّعادة والفرح، فرحٍ لا يحدُّه حتى الأفق الذي يحاولُ أن يقطعَ البحر، فاغرورقت عيناي بالبكاء، فأجهشَ العود، بطلُ المَلحَمَة، وهو يرى الدِّيدان تخرجُ من أنف صديقه الحبيب، سمعت صوت المطرب...

– على رسلِكَ يا صاح، إنَّك تعزف وسط المَلحَمَة...

توقَّفت، صفَّق الجمهور بحماسٍ وهو يجهلُ ما يحدثُ الآن على خشبة المسرح، من لقاءٍ غريبٍ وغير منطقيٍّ بالعُرف السَّائد، مطربٌ راحلٌ منذ عقد من السِّنين، وشاعرٌ عاد إلى عشِّه كطيرٍ مهاجر، وملحِّنٌ يحاولُ أن يعقلِنَ ما يحدث. هتفَ المطرب كما في الأيَّام الخوالي.

– لقد بدأت المَلحَمَة.

فانطلقت الطّبلة تجلدُ الحضورَ بنداءات الرَّجل الأوَّل وتوجُّساته، وهو يحثُّ خلَّه ونديمَه على خوض الغمار، غمارِ اقتحام المستحيل، وتحقيق حلمٍ عَصيّ، أبحر العود يشقُّ غمارَ البحر، وعواصف النّوء، ومجذافاه حلمٌ مجنونٌ لرجلٍ مَسلوب العقل يحاولُ أن يقهرَ المنطق والواقع ويرقى إلى السَّماء حيث الخلودُ، وصرنا، أنا والمطرب والآخر، ربابنة هذه السَّفينة، نُصارع العواصف والأنواء لبلوغ

الجزيرة "اليوتوبيا".

أحدُ الحضور:

ما يحدثُ الآن على المسرح ضربٌ من الخيال...

لم أكُن أصدِّقه لولا أنَّ أناملي متأكِّدةٌ من وجودي الماديِّ من خلال لَمسي مَسندَ الكرسيِّ الذي أجلسُ عليه، وساعد جليسي الأيمن، والدُّخان المتحلِّقُ من سيكارة الرَّجل الجالس أمامي، والهمسُ المُبهَمُ لرجلين يجلسان يساري، وعيناي ترصدان فضاء القاعة السَّابح في ضياءٍ أزرقَ حالم، فأتأكَّدُ أنَّ ما أراه حقيقة، حقيقةٌ قد تمسُّ الخيال، أم إنَّ الخيال تقمَّص الحقيقة... فلكَوني أجلسُ في الصَّفِّ الثاني وأمتلكُ أذنَين حسَّاستَين تلتقطان همسَ الفراشات، فقد كنتُ أسمعهما، الملحِّن والشَّاعر، ولكنَّ ما حيَّرني أنَّ ثمَّة صوتًا ثالثًا يشاركهما الحديث، فبحثت في الزَّوايا والكواليس، لم أجِدْ أيَّ شيء، المسرح يُحاذي الحائط، وليس ثمَّة غرفٌ جانبيَّة، فهو ملك وحدهما فحَسب، ولكنِّي واثقٌ من الصَّوت الثَّالث، وأستكنهُ في نبراته نوعًا من السَّطوة المحبَّبة، ولكوني أعرفهم جيِّدًا، الملحِّن والشَّاعر والمطرب الرَّاحل، إذ كنتُ، في بعض الأحيان، وعن كثب، أجالسُهم في السِّنين الخوالي، إختلطَ عليَّ الأمر، وتساءلتُ والحيرة بحرٌ يقذفُني إلى الأعماق.

– هل تتغيَّرُ قوانينُ الطَّبيعة، ويحدثُ شيءٌ جديدٌ يكونُ هو الاستثناء؟ فإن حدثَ هذا، ودخلَ دائرةَ المنطق والمعقول، فإنَّ الاستثناء يحدثُ الآن.

وما عزَّز ظنِّي الذي يلامسُ شغافَ اليقين من حدوث الخوارق، أنَّه،

عندما بدأ الغناء – الملحِّن والشَّاعرُ الذي ارتقى المسرح بغتةً وهــو يسير كالمُنقاد وفي يده الأخرى طبلتَه الأثيرة، مثل طفلٍ يحرصُ على الإمساك بطرف عباءة أمِّه، وهي تقودُه أنَّى تشاء – ظهــورُه هــذا المثيرُ والفجائيُّ بعد اختفاءٍ دام عقدًا من السِّنين، يُدرَجُ من ضمن هذا الاستثنائيِّ الذي تحوَّلَ حقيقةً توطَّدت في نفسي وأقنعتنــي بحــدوث المعجزة، بخاصَّةٍ عندما تواصلَ الغناء... فقد تيقَّنــت الآن أنَّ الــذي انطلق بالغناء، والذي من المفترض أن يكون اثنان، الشَّاعر والملحِّن، كان ثلاثة... والثَّالث هو نبرةٌ لا يُمكنُ أن تخطئَها أُذناي اللَّتان حفظتا كلَّ طبقات صداح المطرب الرَّاحل...

نعم، إنَّ مَن كان يغنِّي المَلحَمَة: الملحِّن، الشَّاعر، المطرب.

الصُّورةُ الأخيرة

بحدقتَين أرمدَهما الرَّمل الحارُّ اللَّزج الوخم، وأضناهما ثقلٌ يرســفُ من مؤخّرة جمجمته منحدرًا من جبينه المقــدَّد بالشَّــمس العاصِــرَة، وأبهرهما سطوعُ السَّماء الدَّائم، يرسمُ خطًّا دائريًّا وهميًّا، يحاول مــن خلاله استجلاءَ معالم الأفق علَّ صبيرةً أو هيكلاً عظميًّا لحيــوان أو بعير نافق يستدعيانه للتَّفيُّؤ في ظلالهما، وربَّما يجدُ ما يُخرسُ ريــاح الجوع التي تقتلعُ أمعاءَه وسياط الظَّمأ التي تلسعُ أحشــاءه... المــدى يترامى أمامه سجَّادةً عسجديَّةً من رملٍ فائرٍ تعوي في كينونته مثــل

ذئب عافَه القطيع، ينتظرُ مخالب الموت، يسحبُ نظره المنداح نحو الأفق ويرميه بوهن حواليه، لا شيء سوى الرَّمل، رملٍ لا يحدُّه نظر، وبحرٍ يتلاطمُ أمامه متسارعًا نحو الأفق، أمواجُه سرابٌ متكاثفٌ تحلِّقُ في فضائه نوارسُ تبتكرُه أخيلتُه المبتَلِيَة في إيجاد تفسيرٍ منطقيٍّ لوجوده الفريد والرُّومنطيقيِّ في هذه البقعة النائية من الكون، يجمع شتات بصيرته ويحاول أن يجليَ هذا السَّاتر الضّبابيَّ الذي يسلفنُ تفكيرَه ويشلُّه؛ ولكن، من دون جدوى، فالخواء يفضي إلى آخرَ أكثرَ كثافة، وحين أعيَتهُ الحيلة، أو توقَّف تفكيرُه في البحث عن الحلّ، استظلَّ غيمةَ التَّشوُّش التي تُمطرُ فوق وِجدانه زخَّاتٍ من الضّياع والخوف من الآتي المتمثِّل بكائنٍ يحملُ جسدًا غابت عنه الذَّاكرة، يقضقضُ أيَّامه وسنينَه في البحث عنها، يشعرُ أنَّ قواه تنسلُّ من بَدَنه فتخورُ عزيمتُه ويستلقي على ظهره، يشعرُ أنَّ الرَّمل يلتصقُ بظهره فتلسعُه حرارةٌ كاوِيَة، يرفعُ رأسه مشكِّلاً مع جسده الرَّاكن على الرَّمل كقشَّة لا معنى لها زاويةً قائمة، ويقذفُ نظرةً عجلى متسائلة، فيكتشفُ عريَ صدره وبطنه وبنطاله الممزَّق عند الرّكبة اليمنى، تثلمُه بقعٌ من دمٍ متخثِّرٍ في أرجاء شائهة منه، يهمسُ لنفسه وهو يُلقي رأسه ثانيةً على الرَّمل...

– ما الذي أتى بي إلى هنا؟...

يرتحلُ ثانيةً إلى عالم الذاكرة، يفلحُ في اقتحام غيوم الضَّباب، الواحدة تلو الأخرى، فتتهاومُ في أعطافها صورٌ لا يربطُها رابط، ولكنَّها تبدو مثل سالبٍ رديءٍ لصور مصوِّرٍ فوتوغرافيٍّ أفنى سنينَه في توثيق واقعه اليوميِّ إلى ذكريات، فتدخل ذاكرته صندوقها العجيب لتجلوَ

أمامها سوالبَ صورٍ تتراءى أمامه ذكريات بعيدة مشوَّشة: بيت... بيت يغلِّفه الغموض على أطراف الغابة، غابة أشجارها باسقة، أهي أشجار الصّنوبر أم السّنديان أم النَّخيل، وامرأة... امرأة متلفِّعة بالضّباب والغبار، أهي عجوزٌ أم يافعة، متزوِّجةٌ أم صبيَّة، تحملُ إناءً مملوءًا بالحبّ، أهو الذّرَّة أم الشَّعير أم فتات الخبز، تغرف منه بكفِّها ثمَّ تلقي به إلى أسراب الوزِّ والبطِّ والدَّجاج والدّيكَة الرُّوميَّة، إلى غيمةٍ متساقطةٍ من الحَساسين والقبّرات والحمائم غير الدَّاجنة، وطفل تشوشه الذَّاكرة بحيث لا يعرفُ إن كان صبيًّا أم بنتًا يركض خلف كلبٍ سلوقيٍّ يتقافزُ فرحًا وغبطة، ويقعي إزاء حصان مربوط في جذعِ شجرة يحمحمُ ويزنخرُ كلَّما شمَّ أو رأى شابًّا يقطعُ أفنان الأشجار المتيبِّسة قرب بئرٍ يركنُ بجانبها دلوٌ قديم... وتتشوَّش الرُّؤية ثمَّ تختفي حين تكوي عينَيه حرقةٌ لاسعةٌ من جرى تطاير ذرَّات الرَّمل الرَّامضة إلى وجهه، يتساءلُ متجاهلاً الألم...

– مَن هؤلاء؟...

يحاول أن يُنهضَ جسدَه، يعجز... يطرحُ تساؤلاً على نفسه.

– لِمَ أنا مُتعَبٌ إلى هذا الحد...؟

يرفعُ سبابتَه ويحكُّ أنفه، يتحسَّسُ شفتَيه المتيبِّستَين كشقوق مفتوحة لأرض مُمحلة خنقها الظَّمأ فتحولَّت أخاديدَ مواتٍ تنتظرُ القطر أو الغيث أو السَّيل لترويَ ظمأها لفترة وجيزة، ومن ثَمَّ، فليحلّ التَّصحُّر أو الطَّوفان... تستدعيه جمجمته للولوج إلى صندوق المصوِّر الفوتوغرافيِّ الشَّائب، يتملَّى تفاصيله بإمعان، إنَّه يشبهُه كثيرًا، ولكنَّ السِّنين قد تركت فيه إبداعها فحصدت شعره الأسود وحوَّلت هامتَه

صحراءَ مديدةً تنتشرُ في بعض جوانبها شجيراتُ الصّبَّير تعبثُ بهـا الرِّيح متى شاءت، وعيناه سجينتا نظَّاراتٍ طبِّيَّةٍ سميكةٍ تركتها إحدى ماسكاتِها فاستعاض عنها بمطَّاطٍ أسودَ يحصرُ صلمةَ أذنه المشـعرة بشدَّة، وفي رقبته حبال لحمية تعزف لحنَ الزَّمن الذي يجعلُ كلَّ مَـن يسمعه يشيخُ باستثنائه هو، فهو دائم الشبوة، لمح المصوِّر يبتسمُ عـن فمٍ نصف أسنانه مَقلوع والنِّصف الآخر مَنخور، وبصوت موسـيقي يقول.

– هيَّا... سأريك صورتك الأخيرة.

ويُخرج من فتحة جانبيَّة من الصّندوق صورًا يضعُها في سـطل بـه ماءٌ أصفر، ثمَّ يُدخلُ كفَّه ويرجُّ الصُّور حتَّى يخرجَها أخيرًا ويعلِّقَهـا بقراصات على السِّيقان الطَّويلة التي يقفُ عليها الصّـندوق، يبتسـمُ بغموضٍ يستشفّ منه بعض التَّفاؤل، ثمَّ يلملم عدَّتَه، يضع الصّـندوق الخشبيَّ على كتفه، ويتنكَّب بكتفه الآخر الحاملَ الخشبيّ، ويحمل بيده الطَّليقة السَّطل المليء بماء تفوح منه رائحةٌ حامضـيَّة، ثـمَّ يتسـلَّمُ الطَّريق صاعدًا نحو الأفق؛ وقبل أن يغيب، يلتفت، يبتسم، ثمَّ يسـتمرُّ وكفاه تُلقيان صورًا تتطايرُ نحوه، الواحدة إثر الأخرى... إلتقطَها، ثمَّ رتَّبها، وحاول أن يسلسلَها فتتجلي بعض الأشياء على نحوٍ مشـوَّش: غزالة مذعورة، روحها تسابق سيقانها التي تجلد الأعشاب والأدغـال والشُّجيرات الغضَّة الطِّفلة والرَّغوة الكثيفة تتشكَّل في زاويتي فمهـا وتتماهى مع الدُّموع المُنسابة من العينَين السَّاحرتَين، وفـي جَريهـا المحموم تحاول أن تبتعدَ عن سنابك الفرس التي تلاحقهـا والملبِّيَـة صراخَ رجل يمتطي صهوتها ويحثُّها على اقتناص الطَّريـدة، وفـي

نهاية الصُّورة كلبٌ سلوقيٌّ يحاول الموازنة في المسافة المحصورة بين أقدامه وذيل الغزالة... صورٌ تتوالى في ذاكرته تجعل المقارنة بين الفارس الذي يتقنَّع كيانه ووجهه المصلوب على الصُّور المفترضة أمام رؤاه المضبَّبَة شيئًا أشبه بالحلم، وكذلك وجه المقاربة أو التَّذكير أو التَّشبيه بين عينَي الغزالة وعينَي زوجته المنتظرة، قابل للتحقُّق كونَ الاثنتَين، الغزالة والزوجة، تحملان السِّمات عَينَها، وثمَّة في إطار الصُّورة مقاربةٌ أخرى أقلُّ جنوحًا للخيال، ولكنَّها ليست صعبةَ التَّحقُّق، لاسيَّما وأنَّ السَّعي لتحقيقها جارٍ في الواقع في الإثنين معًا... فالأوَّل الرَّشيق الرَّهوان يحلم بعلف من دريس الشّعير والتّبن، والثَّاني الرَّشيق السَّلوقيُّ يحلم بعظمة هذا الفخذ الشَّهيِّ الرَّاكض أمامه بتلك السُّرعة الخارقة التي أنهكَته وهو الخبير بفنون المطاردة وجعلته يفكِّر في الكفِّ عن المطاردة، بيدَ أن عظمة الفخذ الشَّهيَّة للغزالة شحنته بقوَّة مضاعفة للانقضاض على الجسد الجميل وأسره بين فكَّيه...

إنتهتِ الصُّور، وتوضَّح الموقفُ في ما عدا النِّهاية، ثمَّة صورة ناقصة تكشف نتيجة ما حدث، فهو لا يتذكَّر كيف اختفتِ الغزالة والحصان والسَّلوقيُّ والغابة والطُّموح، هو... فقط صحا على نفسه وجسدُه أسيرُ الشَّمس والرِّمال والتِّيه والعطش والوهن والخوف، هو وحدَه بقي يعالج سكرات الضّياع معانقًا الدّبق والرّمضاء وانتظار المجهول...

عيناه بندولان يتراقصان بإيقاع رتيب ويحتويان المدى المترامي الأزرق الصَّافي كعينَي طفل وليد أو عينَي الدِّيك، تحاولان أن تبحثا

عن غيمة، أيًّا كان لونها، بيضاء، رصاصيَّة، سوداء، ولكن ليس ثمَّة سوى سماء ذات إزرقاق حادّ، وتذكَّر طرفةً رواها أحد أصدقائه عن الغيم والمطر وهما يحتسيان الحليب السَّاخن في المقهى فأفلتت الضَّحكة من شفتَيه عفوًا... صافية، جهراء، واهنة، وهو يستنبط غموض النَّفس الإنسانيَّة وشطحات الرُّوح، فبوضعه الفريد والمأساويِّ هذا، كيف يعنُّ لتفكيره التَّحليقُ إلى هذه الآماد، ما يحصل له الآن من ابتكار الأخيلَة، مصوِّر شائب، مقهى، يمكن أن يحلم المرء بكلِّ هذا وأكثر لو تهيَّأت له كلُّ وسائل الرَّاحة من مأكل ومشرب وهناء واسترخاء و... ماء، وهاجمته لظى الفرن الذي يفري أمعاءه والذي ينتظر رشفة أو حتَّى قطرة من ماء، صرخ بقوى واهنة.

– ماء.

وبعد أن هصر أسفل بطنه.

– يفريني الظَّمأ.

فيستجيب لصرخاته كائنٌ ما كان يتصوَّر أن يراه في حياته على حقيقته بهذا الجلاء وهذا الوضوح، كيف لم يعاينْه حين حدَّق في السَّماء على الرَّغم من أنَّ الفضاء ملعبه ومرصده، ومنها تنطلق صولاته النَّاجحة؛ يقترب منه ببطء، ربَّما يجتهد بعينَيه الصَّفراوَين الحادَّتَين أن يتيقَّن من حقيقة هذا الرَّجل نصف العاري الذي يلتحم بالرَّمل، هل هو حيٌّ أم مَيْت؟... مخالبُه الحادَّةُ كنصل الحربة تنغرزُ في الرَّمل ثمَّ ترتفع نافضةً عنها ذرَّات الرَّمل الجريحة، وبَدَنُه العملاقُ يتحرَّك نحو الأمام استجابةً لتعاقب الرّجلَين العضلتَين

النافرتَين المريّشتَين مثل فرسان القرون الغابرة، يسمع نبرة المصوِّر الهازئة.

– نهاية رومَنطيقيَّة منطقيَّة بارعةَ الجمال.

تأمَّله بعينَين لا تستكينان، يقف على رأسه، يصير مظلَّةً تطرد أسياخ الشَّمس عنه، يتمنَّى أن يكون هذا الشيء حجرًا من ريش أو عمـــودًا من ملح أو يقطينةً تسوّر وتسقّف جسده الوسنان الباحث عن الرَّاحة، راحة آنيَّة أم أبديَّة، لا فرق، لا أهميَّةَ لماهيَّتها البتَّة، المهمُّ أن تطفـــئَ ظمأه، إلى الدّعة، أو الارتواء من الماء، أو الطَّعـــام، أو أي شـــيء ينسيه الشّواظ الذي يشوي جسده وروحه... أحلامه التي شيَّدها فـــي وجدانه خلال اللَّحظات الفائتة تقوَّضت بغتةً حالما تحرَّكت المخالـــب ترسمُ في خطاها الواثقة دائرةً حول جسمه، تابع حركته بلا إحساس، فهو ليس خائفًا أو متوجِّسًا، بل إنَّ بلادةً وعدمَ اكتراثٍ شعَّا من كيانه وبات موقنًا أنَّ الأمر لا يعنيه البتَّة. توقَّف الطَّائر خلف رأسه، كـــاد منقاره الحادُّ المعقوف يلامسُ جبينَه، وحدَّق في تفاصيل وجهه بعينَيه الصَّفراوَين، تصوَّر هذا الاصفرار بحرًا يقتلعُه من أوتـــاده الرَّمليَّـــة وتضمُّه إلى وسائد من ماء رغويّ بارد تميس فوقه النَّوارسُ وغيـــومٌ متزاحمةٌ يتوالدُ من أرحامها جيشٌ من الأنهار، رفع أنامله ومدَّها نحو المنقار المتراجع ولهج...

– ماء...

رفع الطَّير رأسه وتملَّى الكفَّ الممدودة ونهض الجسدُ العملاق فارشًا جناحَيه الهائلَين مشكِّلاً فَيئًا دائريًّا لوهلة خاطفة فـــي المـــدى الـــذي يهرسه، ثمَّ ارتفع محلِّقًا في شعاف السَّماء.

– ماذا يفعل النّسرُ في الصَّحراء؟...

وبعد برهة.

– لماذا لم يقطِّعني ويلتهمني؟...

ويتراءى له المصوِّر الشَّائب وفي يده صورة مشوَّشة، يتملَّى تفاصيلها المغلَّفة بالضَّباب وقشرة الذَّاكرة المشوَّشة، يلمح جسدًا أشبه بالغزال وكتلتَين سوداوَين غير واضحتَي المعالِم، وإنَّما تبدوان كحيوانَين، ربَّما جمل أو حصان، كلب أو جحش؛ حاول أن يتقصَّى التَّفاصيل، ولكنَّ المصوِّر يضعُها في جيب معطفه ويتنكَّب الدَّرب خارجَ أبعاد الذَّاكرة.

أجالَ عينَين مرمدتَين في الأرجاء، رمل، رمل... ولا شيء سوى الرَّملِ المجبَّبِ بالصّهد الثَّاوي، وعراءٍ لا تحدُّه حدودٌ إلاَّ من كثبان رمليَّة بعيدة، وهطلَ عليه سؤال.

– لِمَ لا تقترض الصَّحراء من الواحات مياهها؟...

وضحك لهذا الخاطر الغريب وتساءَل.

– هل أنا أهذي؟!!...

... وبوغت بهم يملأون الفضاء بطيرانهم الرَّشيق، أجساد أربعة تشقُّ عباب الفضاء بأجسامٍ مغزليَّة عملاقة رشيقة وأجنحة ممدودة على سعتها، ترسمُ في السَّماء دربًا مستقيمةً مثل موكب جنائزيّ، وعندما استقرَّت فوقه انحدرت بأجنحة لا تريم ورؤوس محنيَّة نحو الأسفل وقوادم معقوفة ناصلة حادَّة، وكأنَّها دواليب طائرات ممدودة تحت الصُّدور والبطون، فغرَّ فاه وقال لنفسه.

– ما أحدَّ أظفارهم؟!!...

ثمَّ استتلى بنبرة تهكُّميَّة.

- يا له من نسرٍ ناكرٍ ذاتَه، أبَت نفسُه النَّقيَّة أن تستحوذ على الفريسة وَحدها، فدعى أقرانه، وبطيب خاطر، لوليمة دسمة.

توزَّعت النُّسور حول جسده... ينادي خلَّه، المصوِّر الشَّـيخ، فيلبِّـي الآخرُ النِّداء على الفور، يتوسَّل إليه.

– أرِني الصُّورة الأخيرة...

يبتسم الآخرُ ولا ينبس ببنت شفة.

وقف اثنان عند قدمَيه، والآخران عند كتفَيه، هيَّأ نفسه ذبيحةً، أغمض عينَيه يترقَّب الآتي الرَّهيب، ويرى ابتسامة المصوِّر تتَّسع وفي يـده الصُّورة، يهمس برجاء.

– أرجوك...

يضع الآخرُ سبابته على شفتَيه، وعيناه تبتسمان سخريةً أو شماتةً، ثمَّ يهزُّ رأسه يمنةً ويسرة، ويدسُّ الصُّـورة مقلوبـةً فـوق الصّـندوق الخشبيّ.

– النِّهاية؟!!... أتوسَّل إليك...

يفرد الآخرُ ذراعَيه ثمَّ يستدير ويغيب عن ناظرَيه وابتسامتُه الغامضةُ تنساحُ مغطِّيةً الصَّحراء والسَّماء والأفق... وصحا على نفسه وهـو يطير في السَّماء، لم يصدِّق عينَيه السَّـابحتَين بلجاحـة وسـعير لا يستكينان حين لمح أمام مدِّ بصره نسرَين يمسكان بمخالبهمـا بقايـا قميصه وعيناهما تستقرئان عينَيه، لمح فيهما إمارات الحكمة والعطف والألفة، رفع رأسه وحدَّق في قدمَيه، فوجد نفسه مربَّعًا بأربعة زوايا يقبض على كلٍّ منها نسرٌ يسعى مع رفاقه في طيران متناغم حثيـث

متمهِّل والعيونُ شاخصةٌ بخطٍّ مستقيمٍ صوب هدفٍ مشترك، لا يدري من أين أتَتهُ النّبرة التَّهكُّميَّة هذه لأوَّل مرَّةٍ في حياته حين وجد نفسه يقول.

– لا بدَّ أنَّهم يطيرون نحو الأعشاش حيث الفراخُ الجائعة.

وغبَّ فترة تأمُّل.

– تُرى، هل ستكون قسمة ضيزي؟!!... أم أنَّكم ستختلفون كما نحن البشر، وسيستأثَّر أحدكم بعد صراع دامٍ بوليمة كاملة غير منقوصة، أم سيتَّفق اثنان منكما على تحريم الاثنين الآخرَين، أم أنَّ أحدكم سيستأسدُ على الآخرين ويظفرُ بالغنيمة وحدَه؟

وشعر أنَّ البساط الطَّائر المكوَّن من هذا التَّشكيل غير المعقول يهبط بتمهُّل ورفق، أغمض طرفَه موقِنًا نفسه بقبول ما سيأتي، فيزوره المصوِّر هابطًا من الأفق وفي وجهه بسمة لم يستشفَّ سجاياها، يهمس.

– الصُّورة الأخيرة؟...

يهزُّ المصوِّر رأسه دلالة الرَّفض... فتح عينَيه ثانية، تهيَّأ له ونظرات النّسر الأيمن تعانقُ روحه، إنَّ العينَين... عينا النّسر والمصوِّر متشابهتان بل متطابقتان.

– ما الذي يجري؟؟...

قامت النُّسور الأربعة بحركة مشتركة موحَّدة، فهبط على أثرها هبوطًا سريعًا، فابتهل إلى الرَّبِّ أن يمنحَه ميتةً سريعةً خاطفةً من دون ألم، وانغمر... في الماء، اصطدمت قدماه الواهنتان بالقعر، دقَّ أقدامَه في القاع وصعدَ نحو الأعلى، استوى فوق سطح الماء، صار

كيانُه كلُّه فمًا مفتوحةً تعبُّ جرعات الماء، فسقطت شآبيبُ المطر تملأ الأخاديد المشرَّعة للأرض المُحلة داخله، زغردت حواسُّه وامتلأت خلاياه الفارغة بالماء، غاص ثانيةً في طيَّات هذا الأزرق الحبيب النَّفيس وطاف ثانية، همس بارتواء وقناعة تامَّة.

– الآن اقتَسِموني ذبيحةً مكتملة.

وجاس عينَيه مستَقصِيًا أبعادَ المكان، على مدِّ البصر وجدَ حدودَ الواحة التي تخرِّمها أشجارُ النَّخيل من كلِّ حدودها، واحة من مياهٍ سلسبيل، متفرِّدَة كنقطة بيضاء صافية وسط قماشة كالحة، والطُّيور تفرُّ طائرة مذعورة نحو الصَّحراء... والنُّسور الأربعة على الأشجار تقطف بمناقيرها البلح الطَّازج من عثوقه الذَّهبيَّة وتُلقيه على جذاذت السِّيقان المحزَّزة الشَّاهقة، فيتدحرج قسمٌ منه وينغمر في الماء، فيما الباقي يشكِّلُ سجَّادة من ذهب مصفًّى.... ومن ثَمَّ، وبتوقيتٍ واحد، طارتِ النُّسور الأربعة وشكَّلَت سهمًا، نهايتُه فوق الواحة، ومقدِّمتُه في عمق الصَّحراء... واختفت، واختفى المصوِّرُ الفوتوغرافيُّ في نفس الأفق، بعد أن منحَه الصُّورة الأخيرة.

الأقاصي

شيوخُ القرية المحنَّكون المَعجونون بالحياة كانوا يجزمون جنونَه ويلهجون وهم يهجعون أبدانهم الوسنانة في فَيء البيوت القديمة

لقريتنا المعزولة والغارقة في مستنقع النّسيان.
– إنَّه مجنونٌ بالتَّأكيد... ولكنَّه مُسالِم.
ويأخذهم الصَّمت لفترة لا تسمع فيها إلاَّ أنفاسهم وهي تتموسقُ مع حبَّات السّبح الكهرب المتهاطلة من الخطِّ الضَّيِّق المتشكِّل بين الإبهام والسّبابة وأناملهم الحبليَّة تمسِّد عثانينهم المدبَّبَة وعيونهم اللاَّئطة تحت الحواجب الكثَّة المُشعرَة، تتأسَّف على هذه الفتوة وهي تتسربل بالجنون.

***

نساء القرية المتزوِّجات، اليافعات منهنَّ والعجائز، في غدوهِنَّ ورواحهِنَّ إلى شاطئ النَّهر كن يقذفنَ من وراء سواعدهنَّ المحزَّمة بالأساور والمتشابكة مع الجرار الفارغة أو المليئة بالماء، نظراتهنَّ الشَّفوقة على فتى القرية الغريب الصَّموت، وهو يقتعدُ أبدًا دكَّتَه الطِّينيَّة الأزليَّة على يمين باب بيته الخشبيِّ المتقوِّض والمرتَّق، وهو يضمُّ بين جوانحه حوشًا وحديقةً وغرفًا يعشِّشُ فيها الصَّمت والغموض المتموسق مع همس الأشجار وشَدو الأطيار.
كنَّ يمصمصنَ شفاههنَّ ويتهامسنَ بأسًى وتعاطفٍ حقيقيّ.
– كيف لا يجنُّ هذا المسكين وهو وحيدٌ منذ سنين.
وتتذكَّرُ العجائز منهنَّ ذلك الصَّباح البعيد، حين عبرت إلى قريتهم امرأةٌ آتية من أصقاع مجهولة وفي أطراف عباءتها يتمسَّكُ صبيٌّ جمالُه أخَّاذ، ولكنَّه لا يتكلَّم، بل ينظر إلى الآخرين نظرةً تجعلهم يغضُّون أهدابَهم مُرغَمين أمام هذا الجمال الباذخ لتينك العينَين.

***

صبايا القرية، الجميلات والقبيحات على حدٍّ سواء، كنَّ يرمقنَ وسامتَه

السَّاحرة ويتملَّينَ منجذبات، فاغراتِ الأفواه، هذا الدَّفق البَّاذخ من فتوَّة رجوليَّة مُبكرَة، وهذا الألَق البارق من وسامة لا تحدُّها أيُّ وسامة في سائر شباب القرية... وبخاصَّة سحر عينَيه، وبشرته البيضاء، وشعره الأشقر، ويهمسنَ لأنفسهنَّ بنبرة لا تستشفُّها إلاَّ الخوادرُ فحَسب.

– آهِ... لو لم يكُن به مسٌّ من الجنون.

***

وكنَّا، نحن الأولاد الذين وَطِئُوا مرحلةَ المراهقة أم علـــى أعتابهـــا، نألفُه ويألفُنا، وكنَّا نرتاح له وهو يراقبنا بحبٍّ وحميميَّة ونحن نلعـــب الكرةَ في السَّاحة التي تنتهي بفم النَّهر المتمثِّل بالنَّاعور وهو يرســـلُ شجوَه الحزين الذي يترجم شكواه بقصاصه الشَّبيه بقصـــاص ذلـــك العفريت الذي حاولَ أن يسرق النَّار من كبيـــر العفاريـــت ليُعطِيَـــه لإنسانٍ مقرور، ليتدفَّأ ويطهو طعامه ليطعم آلاف الأفـــواه الجائعـــة، والذي حُكمَ عليه بحمل صخرة ليصعد بها على ظهـــره لقمَّـــة جبـــل شاهق وعند الفشل كان يعاودُ الكرة... هكذا كـــان يحكـــي حكـــواتي القرية للرِّجال المُلتَمِّين في المقهي ليُستقبَلَ بالاستخفاف منهم، وكنَّـــا نحن اللاَّئذين في دفء عباءاتهم نستلذُّ بالحكايا... هكذا كـــان حـــال ناعورنا... الشَّكوى والأنين.

وكنَّا أحيانًا نقنع فتي القرية الصَّموت أن يلعب معنا، فكان يلبِّي طلبنا ويلعب بأقدام ماهرة مصطخبة تتعاكس مع فمه المُطبَق أبدًا. وعنـــدما يصافح الغروب كفَّة اللَّيل القادم، كان يشيِّعُنا بعينَيه الجميلتَين ونحـــن نلملمُ شقوتَنا ونزقَنا وعراكَنا البريء المؤجَّل، ونصطحبُها إلى بيوتنا، وعيناه تعوِّضان ما يعجز عن قوله فمُه المُطبَق. كان فتـــى القريـــة المجنون، والأخرس، والوحيد، والفاتن، والصَّديق الوفيّ لنا يحـــرص

أن يصل كلٌّ إلى بيته، ومن ثَمَّ ألاحظه، لكون بيتنا لصقَ بيته، يمشى بتثاقل ويلج دارَه ليتماهى مع صمت الغرف والحديقة والأطيار.

***

والشَّفق يتهيَّأ للمغادرة ليسلِّمَ أمره ليومٍ صاح، كنت أقف على سطح دارنا أتأمَّل قرص الشَّمس النَّاهض من مضجعه في الأفق الشرقيِّ المفروش بالرّباب، وروحي الغضَّة المحلِّقة نحو ربيعها الخامس عشر تتنسَّمُ الإشراقات الأولى لليوم القادم بكلِّ ما يختزنة من دفءٍ نابضٍ من السَّماء العالية ومن سماء جديدة تشرق في جسدي وتجعلُه يصطلي برمضاء الرُّجولة المبكرة التي تقدِّد أيَّامي بأسياخ التَّرقُّب والقلق... تناهت إلى مسامعي أصوات متواشجة تعطي النّبرة الأخيرة نغمةً يتداخل فيها الشَّدو والزَّقزقة والهديل والنَّعيب والنّواح في احتفال فريد لم أسمع مثيلاً له من قبل، والذي سمعته من خلال فواصل الصَّمت القصير نبرةٌ آدميَّةٌ جليَّةٌ تُلقي كلماتٍ متسارعةً تتخلَّلُها فواصلُ من أنغام الطُّيور المختلفة... تلفّت حولي، لا شيءَ استثنائيًّا، فالحساسينُ في الخلاء المترامي لحديقة دارنا ملتمَّة تتقافز بحبور فوق العشب أو في الطّوار تلتقطُ بقايا الخبز، أو على حافَّة الحوض تروي ظمأ هجوع ليلة طويلة، والنَّواعير تبكي تعبَ ليلة أخرى، والأشجار تتمطَّى نافضةً عنها الكرى، والفلاَّحون يحملون مساحيهم وفؤوسهم وعيونهم وأقدامهم شاخصة نحو الحقول... تقمَّصتُ دور الفأر وقوَّمتُ أذنَيّ، وصار جسدي كلُّه لاقطةً كبيرةً حسَّاسة، أو كلبًا سلوقيًّا يتشمَّمُ الأثر بالأذنَين، لم أخطئِ الإشارةَ التي التقطَتها مجسَّاتي حين اكتشفتُ مذهولاً أنَّ الأصوات تأتي من خلف الحائط، وتحديدًا من دار الأخرس. جثوتُ على الأرض، ومشيتُ على أربعة، وألصقتُ عيني

أبحثُ في السِّياج الفاصل بيننا عن ثقبٍ أرى فيه عجائب ما أسمع، وحين اهتديتُ انفتحَ أمامي على حين غرَّة عالمٌ ساحرٌ غريبٌ وغيرُ معقول...

حديقةٌ غنَّاءُ واسعةٌ تتوزَّعُها أشجارُ الخوخ والتِّين والرّمَّان والزَّيتون تسبحُ في شلاَّلٍ من أشعَّة الشَّمس الفَتيَّة، وصديقي... المجنون، الأخرس يقفُ في الفناء المفروش بالحصى المُطلِّ على حزامٍ من الآس يفصلُ الحديقة عن الفناء، وقد أفرد ذراعَيه ووجهه يرتديه السَّناءُ وتنتشر من هامته أسياخٌ من الضِّياء البارق لتصطدم بالجدران الطِّينيَّة لترتدَّ مخيِّمةً فوق كراديس الأطيار الموزَّعة حوله كخلايا النَّحل وبنَسَقٍ لا يفهمُه إلاَّ مجمع الطَّير فقط، فالحساسين في الصَّفِّ الأوَّل يتبعُها الحمام، الأليفُ منه والبرّيّ، ثمَّ البطُّ البرِّيُّ المهاجر وخلفه الدرّاج والوزّ والسّمَّان، وفوق قمم الأشجار تجثمُ أصناف الجوارح وكأنَّها في ترتيبها المرسوم بدقَّة متناهية كرَّست نفسها سقفاً يحمي الطَّير من... ممَّن؟!... ومَخبولُ القرية الأخرس يطفرُ من عينَيه الرَّائعتَين فرحٌ لا محدود، ويمدُّ ذراعَيه بخطٍّ مستقيم، ثمَّ يرسم بهما حلقةً دائريَّةً حول الكردوس المتراصِّ أمامه فيلفّ الجمعَ صمتٌ آسر، فتخرج الكلمات من فم أخرس قريتنا كشلاَّل جبليٍّ هادر يغسل أدرانَ الوهم الذي تغلغل في عقولنا ويقيننا كلَّ هذه الفترة الطَّويلة، فقد كان الفتى يتحدَّث بلغة بني آدم تارةً وبلغة الطَّير طورًا، والعيونُ الوَجِلَةُ والمتهيِّبةُ تنظر إليه بتوقيرٍ واحترام. وكان، حين ينتهي من لازمة معيَّنة تختلطُ أصواتُها، بعضُها مع البعض الآخر، في نغمة نبَّهتني إليها قبل هنَيهة والتي جعلتني أكتشف هذه القارَّة البكر التي يدرجُ فيها الألفةُ والوئامُ والحبّ، الحبُّ المستحيل.

***

كنت جنب النَّاعور أجلسُ وأفكِّرُ في ما رأيتُ هذا الفجر، حين سمعتُ خطوات رياضيَّةً تقتربُ منِّي، حسبتُ في البداية أنَّه أحدُ أقراني، فلم أعرْ له أهميَّة. سمعت صوتًا اكتشفت نبراته هذا الصَّباح، ولا يمكــنُ أن أنساه.

– أتمانعُ لو جلست؟

حاولتُ أن أتصنَّع الدَّهشة والذُّهول، ولكنَّه حسمَ الأمرَ مباشرةً عنــدما قال.

– أنتَ تعرفُ سرِّي.

حاولتُ أن أتغابى فسألته.

– أيّ سرّ؟...

– لغة التَّخاطب بيني وبين الطَّير.

– أنا!!!... أنا!!!...

– أرجوك، لا تُنكر.

ثمَّ قال بودٍّ دافِق.

– أنا لا ألومُك مطلَقًا... لو كنت مكانك لفعلتُ الأمرَ عينَه.

وبعد فترة صمت، أكمل.

– الفضول... أو حبُّ الاستِطلاع.

ثمَّ، بنبرةٍ غاضبة.

– الأنا الدُّونيَّة.

– أنا جِدُّ آسف، لم أكُن متعمّدًا... صدِّقني.

لانَت ملامحه وارتسمَ على مُحيَّاه طيفُ ابتسامة، ثمَّ تكلَّم بنبرةٍ هادئــةٍ ودودة.

– أنت شابٌّ طيِّب.
شجَّعتني إشارته اللَّطيفة كي أسألَه.
– لِمَ هربتَ من الواقع؟
– أنا لم أهرب منه، بل هو الذي فعل.
– وتَمَترَستَ بقيود الصَّمت؟
– كي أحصِّنَ نفسي ضدَّ الأنانيَّة.
– وهربتَ نحو عالم الطَّير؟
– إنَّه عالمٌ نقيٌّ ونظيف، على النَّقيض من عالم البَشَر.
وقبل أن أتكلَّم، قال بصوتٍ خَفيضٍ كمَن يكلِّمُ ذاته.
– النَّاس في القرية حسموا أمري، وحكموا بجنوني، بخاصّةٍ حين كانوا يرَونَني أرفع رأسي إلى أفاريز البيوت أو حبال الغسيل في الأسطح وأُهَمهِمُ مع الطُّيور، جاهلين أنَّني أتكلَّم لغةَ الطَّير.
– كيف تعلَّمتَ هذه اللُّغة؟
تجاهلَ سؤالي واستطرَد.
– لذا قرَّرتُ أن أذهبَ إلى الأقاصي، إلى ممالك الطَّير.
رفعتُ رأسي، كان اللَّيلُ وحدَه يسامرُني، ولا أثرَ لأحد. هتفتُ
– أين ذهبت؟
سمعتُ صوته وهو ينأى بعيدًا، به رنَّةٌ عجيبة، وكأنَّه يأتي من الغَيب.
– إلى الأقاصي.
ليلٌ ونهرٌ ونواعيرُ وريحٌ خفيفةٌ وقريةٌ ساهرةٌ هو كلُّ ما احتوَته ذاكرتي المُشَوَّشة وهي تسعى صاعدةً نحو فم الزّقاق.

***

في الإصباحات القادمة، لم يرَ أناسُ القرية أيَّ أثرٍ لمجنونها، وابتعدتِ

التَّوقُّعات بمقتله من قبل لصوص، ولاسيَّما عندما فتَّشوا بيته غرفــةً غرفةً فلم يجدوا أيَّ أثرٍ لسرقة أو قتل، فاقتنع النَّاسُ أنَّ المجنونَ قــد هجر القرية... إلاَّ أنا، فقد تيقَّنتُ أنَّه ذهب هناك، إلى الأقاصي.

الثقافة بالمَجَّان

سلسلة كتب أدبيَّة مجَّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها

Ath-Thaqafa bil Majjan

Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par

Free of charge literary series established and directed since 1991 by

Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por

Naji Naaman

TÉLÉPATHIE

TELEPATHY

تِليباثي

Mai 2008

ألحقوقُ مَحفوظة © ***Tous droits réservés*** **– All rights reserved –** ***Todos los derechos reservados***

Maison Naaman pour la Culture & www.najinaaman.org